القسام

المجاهد و الحركة

تحرير

عبد القادر ياسين




القسام
المجاهد و الحركة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ ـ نوفمبر ٢٠١٠م



٧ أ شارع فريد سميكة ــ مصر الجديدة ـ أمام نادى الشمس

تليفون وفاكس : ٢٦٤٣٢٤٨٨ - ٢٢٤٠٤٨٦٨

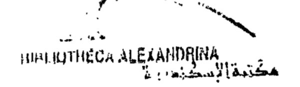
٢٢٤١٥٨١٦ - ٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

القسام

المجاهد و الحركة



هشام عبد الرءوف — د. دولت عريقات
هدى فاروق — رضوى عبد القادر
سناء سلامة — سوزان عاطف

تحرير: عبد القادر ياسين



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

القسام المجاهد والحركة/ هشام عبد الرؤوف . . [وآخ]؛ تحرير عبد القادر ياسين.

ط ١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠م.

١٢٠ ص؛ ١٧ × ٢٤سم.

تدمك 4 - 034 - 701 -977- 978

١ - المجاهدون الفلسطينيون.

٢ ـ القسام.

٣ ـ القضية الفلسطينية.

أ ـ عبد الرؤوف، هشام (مؤلف مشارك).

ب ـ ياسين، عبد القادر (محرر).

٩٢٢,٥٦٩٥٦٠٣

رقم الإيداع ٢٣١٥٩ / ٢٠١٠م

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 701 - 034 - 4

المحتويات

إهداء

إلى أرواح شهداء المقاومة الفلسطينية خالد نزّال (الجبهة الديمقراطية)، زهير محسن (الصاعقة)، صلاح خلف (فتح)، طلعت يعقوب (جبهة التحرير الفلسطينية)، عبد العزيز الرنتيسى (حماس)، عبد الوهاب الكيالى (جبهة التحرير العربية)، عمر عوض الله (الحزب الشيوعي)، غسان كنفانى (الجبهة الشعبية)، فتحى الشقاقى (الجهاد)، فضل شرورو (الشعبية - القيادة العامة).

تقديم

ما من شخص حاز مكانة القسام الرفيعة لدى الشعب الفلسطينى. فلماذا كان هذا الإجماع الشعبى الفلسطينى على ذاك الشيخ الجليل؟!

ألأنه رجل دين،من خارج فلسطين، وهب نفسه للقضية الفلسطينية؟

آم لأنه أول من أسس تنظيمًا سريًا، بهدف مقاتلة الانتداب البريطانى فى فلسطين؟

أم لأن القسام أول من أشعل شرارة الكفاح المسلح فى فلسطين؟

آم لأنه استشهد، بعد ساعات من انطلاق حركته الثورة؟!

آم لأن هذه الحركة كانت البروفة الأخيرة لثورة ١٩٣٦ الوطنية المسلحة التى استمرت ثلاث سنوات متصلة؟!

الصحيح أن هذا كله هو صانع تلك المكانة الفريدة للقسام فى قلوب أبناء الشعب الفلسطينى.

لقد عمل هذا الشيخ المجاهد وفق المنهج العلمى، فوظف سخط الجماهير الفلسطينية على الانتداب البريطانى، وتشريعاته الجائرة، وإجراءاته التعسفية المتحيزة للحركة الصهيونية والمعادية للشعب الفلسطينى، ما اقتضى أن نخصص الفصل الأول من كتابنا هذا للأساس الاقتصادى الاجتماعى لحركة القسام، وقد تعهدت الفصل هدى فاروق. ولأن الشأنين الاقتصادى والاجتماعى لا يكتملان إلا بالشأن السياسي، لذا فقد تولى الشأن الأخير عبد القادر ياسين.

لكن ما الذى أهَّل القسام لذاك الدور القيادى الوطنى الاستثنائي؟!

لعل السر يكمن فى مصادر الإلهام الفكرى التى نهل منها القسام، الأمر الذى عالجه هشام محمد عبد الرؤوف فى الفصل الثالث من الكتاب، لتتبعه رضوى عبد القادر، ملقية حزمة من الأضواء على القسام. أما البعدان العربى والإسلامى، فتعهدتهما سناء سلامة بالبحث والدراسة.

تبقى الصهيونية، وكيف رأت القسام وحركته الثورية؟! الأمر الذى أجابت عنه د. دولت عريقات، فى الفصل السادس.

بيد أن الصورة لا تكتمل إلا بوقائع حركة القسام، الشأن الذى تولته سوزان عاطف.

بذا يكون هذا الكتاب قد غطى شتى جوانب حركة القسام المجيدة. التى يصادف ٢٠/ ١١/ ٢٠١٠ الذكرى الخامس والسبعين لها.

القاهرة فى ٢٠/ ٨/ ٢٠١٠ المحرر

الفصل الأول

الأساس الاقتصادى والاجتماعى للحركة

هدى فاروق

حين وصل القسام فلسطين كانت منهكة غاية الإنهاك، متخلفة حتى العظم، ليس بسبب ويلات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) فحسب، بل، أساسًا، بسبب أربعة قرون من الحكم العثمانى المتصل، وهو الذى احتجز تطور كل البلاد التى حكمها.

فلسطين بلد زراعى، من الدرجة الأولى. الحاصلات الزراعية هى عماد اقتصادها، وكان ثلث سكان فلسطين يعيشون على الزراعة، وبلغت مساحة الأراضى الزراعية مليون دونم، أى ثلث مساحة البلاد.[1] وتجلى التخلف الاقتصادى فى فلسطين فى تركز ملكية الأراضى فى أيدى حفنة ضئيلة من كبار الملاك.

اقتصاديًا

وحسب إحصاء تم فى عشرينيات القرن العشرين، فإن ١٤٤ مالكًا كبيرًا كانوا يملكون ٠٠٠ , ١٣٠ , ٣دونم، بمعدل ٠٠ , ٢٢دونم للعائلة الواحدة. وكان فى قضاء بئر السبع وغزة أكثر من ٠٠٠ , ٢٠٠دونم فى أيدى ٢٨ مالكًا، وكان من بين هؤلاء ١١ مالكًا يملك كل منهم

١٠٠,٠٠٠ دونم، وسبعة ملاك يملك كل منهم ٣٠,٠٠٠ - ١٠٠,٠٠٠ دونم. هذا فى حين كان ٢٩٪ من الفلاحين العرب لا يمتلكون أرضًا. بينما كان ٧٧٪ من فلاحى منطقة القدس و٦٣٪ من منطقة نابلس - عام ١٩٣١ - يملكون أقل من ٥٠ دونم للعائلة الواحدة.[٢]

حسب تقرير لجنة فلسطين لبوعاليم زيون (أى العمال الصهيونيين) كان هناك ٢٥ مالكًا كبيرًا فى منطقة بئر السبع، وأكثر من ٢ مليون دونم أرض، ١١ منهم يملك الواحد أكثر من ١٠٠,٠٠٠ دونم، فى حين امتلك سبعة منهم ما بين ٣٠,٠٠٠ - ١٠٠,٠٠٠ دونم. ويذكر التقرير نفسه أنه فى منطقة القدس والجليل هناك ٢٦ مالكًا كبيرًا امتلكوا ٢٤٠,٠٠٠ دونم. وفى منطقة يافا ٤٥ مالكًا امتلكوا ١٦٢ ألف دونم، وفى منطقة نابلس - طولكرم خمسة مالكين امتلكوا ١٢١,٠٠٠ دونم، وفى منطقة جنين امتلك ستة ملاك ١١٤ ألف دونم، وفى منطقة حيفا ثمة ١٥ مالكًا امتلكوا ١٤١ ألف دونم. وفى منطقة الناصرة ٨ ملاك امتلكوا ١٢٣ ألف دونم. وفى منطقة عكا - صور خمسة ملاك امتلكوا ١٥٧ ألف دونم. وفى منطقة طبريا ٦ ملاك امتلكوا ٧٣ ألف دونم. وامتلك أصحاب البنوك البيروتية عائلة (سرسق)، فى عدة مناطق فى فلسطين، وخاصة فى وادى جزرائيل، ٢٣٠ ألف دونم. أما عائلة الحسينى، والمعروفة من خلال تقديمها عددًا من «القادة المحافظين» للحركة الوطنية للبلاد، فقد امتلكت ٥٠,٠٠٠ دونم. وامتلكت عائلة عبد الهادى (والتى قدمت النوع نفسه السابق من القادة للحركة الوطنية) فى منطقة جنين ٦٠,٠٠٠ دونم.[٣]

وفقًا للإحصاء الرسمى، الذى أجرته السلطات البريطانية للسكان، فى عام ١٩٢٢، فإن ٦٥٪ من سكان فلسطين كانوا قرويين. وكانت معظم الأراضى الريفية فى فلسطين أرضًا أميرية، وقد أنيطت ملكية الأراضى الزراعية بالدولة، بينما تمتع الفلاح بحق الانتفاع بها، شريطة أن يحرثها ويدفع ضريبة الأرض. وقبل تنفيذ قانون الأراضى، خضع جزء كبير من الريف الفلسطينى لنوع من التنظيم سُمى «الالتزام»، حيث ترتب على ملتزم الضريبة أن يستوفى من الفلاح ضريبة محدودة، وفقًا لإنتاجية الأرض ومحصولها.[٤]

مع بداية خمسينيات القرن التاسع عشر، ومع ظهور الوسطاء التجاريين، من العرب والأجانب، أخذ الفلاح يرزح تحت طائلة الدين. ففى وقت جمع الضرائب، وهو الوقت الذى يكون الفلاح فيه فى أمس الحاجة إلى النقد، كان جيش من التجار، أغلبهم وكلاء التجار الأجانب، يتوجه إلى القرى، (ليساعدوا) الفلاح بتقديم النقد الضرورى له، لقاء

رهن محصوله القادم، بفائدة قدرها ٣-٥٪ فى الشهر، أو بشراء المحصول كله، لقاء ثلثى أو نصف ثمنه. كذلك يستولى التجار على المحصول بأرخص الأثمان، ويربحون فوائد قروضهم من ٣٦-٦٠٪ فى العام. عاش الريف العربى عامة، والريف السورى خاصة، قطاعًا مهملًا، ترفض العائلات الوجيهة الانتساب إليه، وتفتخر بأصلها البدوى. وكان أهل المدن عامة ينظرون بازدراء إلى كل أعمال الفلاحة، معتقدين أن النشاط الفعلى فى الزراعة يحط من قدرهم. ولذلك تميَّز مجتمع القرية فى فلسطين بعوامل ذاتية، أهمها انكماش أفرادها، وتقوية الروح العشائرية بينهم، والسعى لتقليد حياة البادية بانتقال قسم من الفلاحين إلى الحياة شبه البدوية، هربًا من هجمات البدو، ويضاف إلى ذلك الفكر الدينى.(٥)

كبار الملاك: حصلت هذه الطبقة على أملاكها نتيجة النظام شبه الإقطاعى، وما لازمه من نظام «الالتزام الضريبي»، الذى قام على أساس الالتزام بجمع الضريبة، حيث أصبحت «أمور جباية الأموال الأميرية تفوَّض إلى أشخاص عن طريق المزايدة،وأخذ هؤلاء الملتزمون يلجؤون إلى ضروب من وسائل الضغط والتسلط لكى يحصلوا على أعظم مقدار من الجباية، تضمن لهم ثروة محترمة، بعد دفع ما التزموا به من أموال». وكذلك عن طريق تسجيل الفلاحين أملاكهم لبعض أفراد الأسر الكبيرة، تجنبًا لدفع الضرائب العالية، أو تهربًا من الخدمة العسكرية. (٦)

نأتى إلى الصناعة، حيث كانت الصناعات القائمة فى فلسطين، آنذاك، تعتمد على الزراعة، اعتمادًا كبيرًا.وكانت الصناعات فى مجملها تحويلية، ويمكن إجمالها بنحو ٥١٠معامل صناعية، تشكل نسبة قدرها ٤١٪ من مجموع الحرف، والصناعات الموجودة فى البلاد، عام ١٩١٣، وشملت ٣٩٦معصرة لزيت الزيتون، و٣٠ معملًا لصنع الصابون، و٩٥مطحنة للحبوب، و٢٥ معصرة لزيت السمسم، و٢١معملًا لصنع الخمور. وقد اعتمدت فلسطين فى صادراتها، اعتمادا شبه كلى، على المنتجات الزراعية، وخصوصًا الحمضيات التى احتلت النصيب الأكبر من الصادرات الفلسطينية.(٧)

نتيجة لنظام الامتيازات للدول الأجنبية فى الدولة العثمانية، نمت فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر الأسواق الاستهلاكية المستوردة. وأدى ذلك بدوره إلى انحطاط عدد من الصناعات الحِرفية المحلية. وبعد وصول الاتحاديين، فى عام ١٩٠٨، إلى سدة الحكم فى الدولة العثمانية واندلاع الحرب العالمية الأولى، تأثر تطوير الصناعات المحلية،

واحتدم التنافس بين الشركات الأجنبية وأصحاب المهن والصناعات الوطنية، إضافة لبروز الرأسمال الصناعي اليهودي في فلسطين.(٨)

تكونت الطبقة العاملة المدنية، في الأساس، من بين صفوف الفلاحين المعدمين، الوافدين من الريف إلى المدينة، وفئة الأنتلجنسيا، من المثقفين التقليديين من أبناء العائلات، التي شغلت بدورها الشرائح القيادية السياسية. وإلى جانب هذه الفئات السابقة ظهرت الفئات الوسطى. وكانت تتألف من فئات أصحاب الحرف، وصغار موظفي الحكومة، والمعلمين، وتجار الجملة، والمحاسبين، ومخلِّصي البضائع، والمترجمين، وكانت نسبة كبيرة من أبناء هذه الطبقة من المسيحيين، وأبناء الأقليات الأخرى، الذين تعلم عدد منهم في المدارس التبشيرية.(٩)

التعليم

كاد التعليم في الدولة العثمانية (١٠) في أواخر القرن الثامن عشر، أن يكون دينيًا بحتًا، فهناك معاهد دينية، يتعلم فيها الصغار، ومعاهد أخرى للكبار، وكان بعضها ملحقًا بالمساجد، وبعضها مستقلًا في مبانٍ مشيَّدة لهذا الغرض، مع مساجد خاصة بها، وكان أسلوب التعليم فيها قديمًا، لم يتغير منذ عدة قرون، بل تقهقر إلى تعليم العلوم النقلية فحسب. كان التعليم محدودًا، والأمية متفشية، تفشيًا وبائيًا. ونتيجة للاحتكاك بالدول الأوروبية في النصف الأخير من القرن الثامن عشر، والنصف الأول من القرن التاسع عشر، تفتحت أنظار المفكرين إلى عدم كفاية هذا النوع من التعليم، إذا ما أرادت الدولة أن تواكب حضارة العصر، ولعل الضرورات الاجتماعية المتولدة عن هذا الاحتكاك، هي التي أوحت بضرورة هذا التحديث للتعليم، وليس الترتيب المنطقي.

السياسة الداخلية التي كانت متبعة في الدولة العثمانية تعد كل طائفة من الطوائف الدينية والمذهبية – من غير المسلمين– «جماعة قائمة بنفسها»، فكانت تمنح تلك الجماعات امتيازات خاصة في كل ما يمت بصلة إلى الشؤون الدينية والمذهبية، ولهذا السبب أخذت الطوائف المختلفة تؤسس معاهد تعليمية خاصة بها، وتدير هذه المعاهد كما يروق لها. كانت هذه المدارس الطائفية، في بادئ الأمر، من نوع المدارس الدينية حقيقة، غير أنها تبدلت بعد ذلك بسرعة، وتحولت إلى «معاهد تعليمية عصرية».

كان نظام الجماعات السابق ذكره خاصًا بغير المسلمين، فلم يتمتع المسلمون العرب

بشىء من التنظيمات والامتيازات، التى كانت الطوائف الدينية الأخرى تتمتع بها. لذلك انحصرت المعاهد التعليمية المفتوحة أمام هؤلاء فى المدارسِ الوقفية القديمة، التى لم تنل أى حظ من الإصلاح، وفى المدارس الرسمية التى كانت تعلِّم باللغة التركية، فى حين أن الطوائف الدينية الأخرى، كوَّنت جماعات منظمة، باسم القانون، وأسست مدارس خاصة بهم، وجعلت من العربية لغة التعليم فيها.

أرادت الدولة العثمانية أن تغيِّر من سياستها التعليمية، بعد انقلاب «تركيا الفتاة»، الذى حدث عام ١٩٠٨، وحاولت أن تفرض رقابتها على المدارس الطائفية والأجنبية، غير أنها لم تستطع أن تغيِّر شيئًا من هذه الأوضاع، تغييرًا فعليًّا؛ لأن المدة التى مضت بين حدوث الانقلاب، ونشوب الحرب العالمية الأولى لم تتجاوز ست سنوات. لذلك استمرت هذه الأوضاع،حتى انحلال الدولة العثمانية.

تردَّى الوضع الاجتماعى الفلسطينى، نتيجة الأسباب السابق ذكرها، وزاد الأحوال المعيشية لأهالى فلسطين سوءًا؛ مما أدى إلى زيادة الأعباء المعيشية على الفلاحين الذين مثلوا الغالبية العظمى من أهالى فلسطين.

اجتماعياً

جعلت هذه الأوضاع الغلبة فى فلسطين لكبار الملاك، فى الفكر والحركة السياسية، على حد سواء، وقد اتسمت تلك المرحلة بأن حصرت قيادة الحركة الوطنية معسكر الأعداء فى اليهود، دون الحركة الصهيونية، أو الاستعمار البريطانى، كما لجمت وقزمت تلك القيادة أساليب الكفاح؛ فضلًا على تشكيلها «الجمعيات الإسلامية- المسيحية»، بدلًا من الأحزاب السياسية.[١١]

سيطر الأسلوب العشائرى على تفكير أغلب الزعامات السياسية للحركة الوطنية الفلسطينية، فى تلك الفترة.وقدم خليل السكاكينى فى مذكراته وصفًا لذلك، فقال : «لكل أسرة إسلامية فى القدس تقاليد مركوزة فى طباعها، يتوارثونها أبًا عن جد، لا يقول الواحد كلمة أو يخطو خطوة إلا وهو مراعٍ تقاليده، قبل كل شيء، ومصلحة أسرته، قبل كل مصلحة، ونفوذ أسرته قبل كل نفوذ، فإذا كلفت أحدًا أن ينتخب عضوًا لمجلس نيابة، أو مجلس بلدى، أو هيئة معارف، أو جمعية وطنية، أو غير ذلك، انتخب كبير أسرته، سواء كان يصلح لذلك

أو لا. وكل جمعية، أو هيئة، أو حزب لا يكون فيه أحد أفراد تلك الأسرة تنقلب تلك الأسرة عليه، وتحاول مقاومته، ولو كان فيه الخير...».[١٢]

جاء الاحتلال البريطانى لفلسطين، ولم يزد الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية إلا سوءًا، وأدى ذلك إلى تدهور أحوال الأهالى العرب، وتدعيم الوجود الصهيونى على أرض فلسطين.

الاقتصاد الفلسطينى بعد الاحتلال الإنجليزى[١٣]

لقد تبدلت الأحوال فى فلسطين، بعد الاحتلال الإنجليزى، ونشطت الصناعة نسبيًا، وتركزت بأيدى عدد قليل من أصحاب رؤوس الأموال؛ لأنها اتجهت نحو الاحتكار، وتركيز الثروة، وتضاعف رأس المال إلى خمسة أمثال، وتضاعف الإنتاج إلى أربعة أمثال. وقد أصبحت فلسطين مركزًا لتوظيف رؤوس الأموال الأجنبية وأنشئت عدة بنوك، منها البنك الإنجليزى الفلسطينى، والبنك الصناعى، وبنك العمل. وقد كانت هذه البنوك تشترط الإشراف على المؤسسات الصناعية حتى تمدها بالقروض اللازمة.

كان نصيب العرب الفلسطينيين من هذه الصناعات قليلًا، فنسبة المشتغلين فى صناعة الصابون العربية ٥٪ من السكان، وقد كانت السياسة البريطانية تتجه إلى دعم الصناعات اليهودية،عن طريق تهيئة الظروف الصعبة أمام الصناعات العربية. كما أن هذه النهضة الاقتصادية كانت موجهة لخدمة الصهيونية، وكانت أيضًا استثمارًا إنجليزيًا لأجل الربح، وليس لإنعاش البلاد، وتقدمها.

لقد أدى دخول السلع الحديثة سوق فلسطين، وتقبل الناس هذه السلع، وما نتج عنه من تغيير فى الاستهلاك، إلى إجبار العديد من المصانع على إقفال أبوابها، وترك العديد من الحرفيين لعملهم. كما أن السياسة الاقتصادية الاستعمارية، أقفلت أبواب الأسواق العربية المجاورة أمام الصناعة الفلسطينية التقليدية. وتفاقمت الحال، بعد عام ١٩٣٠، إذ بدأت العصابات الصهيونية بتشريد آلاف العمال العرب، لتشغيل العمال اليهود مكانهم، وأكثرهم من المهاجرين الجدد، ونتج عن هذا الوضع انخفاض فى الأجور، وتفشى البطالة.

أثرت هذه الأوضاع، سلبًا فى مستوى معيشة العمال الفلسطينيين، وانخفضت أجرة الصنَّاع الحاذقين، والنجارين، والنحاتين نحو ٥٠٪، وأصبح الصانع الماهر يعمل بأجر يبدأ من ١٥ قرشًا إلى ٢٠ قرشًا، فى اليوم، أما العامل والفلاح فيعمل بأجر يبدأ من ٨ قروش إلى ١٠ قروش، فى اليوم. وأصبح ٩٥٪ من العمال أسرى الديون، إما لأصحاب الأعمال، أو لأصحاب الحوانيت. ولتدبير أمور المعيشة أصبح يوجد داخل الأسرة الواحدة أكثر من عامل، يتعاونون فى الإنفاق على البيت، وإذا كانت الأسرة خلوًّا من الأفراد العاملين، فإن المرآة وأطفالها يشتغلون خدمًا فى البيوت، وأجر المرأة الشهرية بلغت من جنيه إلى جنيهين، والولد من ٢٥٠ مليمًا إلى جنيه واحد.

قدرت الحكومة النفقات التى تحتاجها الأسرة المتوسطة من عشرين مادة غذائية ضرورية، فوجدت أنها بلغت ٥ , ٥ من الجنيهات، وإذا أضفنا إلى هذه ثلاثة جنيهات للسكن، وجنيهًا ونصفًا للملبس، وجنيهين للنفقات الإضافية، وجدنا الأسرة المتوسطة تحتاج إلى (١٢ جنيهًا)، على أقل تقدير، وهذا معناه أن ٩٨٪ من العمال، عاشوا فى حالة دون المتوسطة بكثير، وهذا الرقم يفسر، أيضًا، السبب فى اتخاذ العمال السراديب والتخاشيب مسكنًا لهم، والاكتفاء بالمواد الغذائية الفقيرة طعامًا لهم.

الدور البريطانى فى تدمير اقتصاد فلسطين (١٤)

بدأ الدور البريطانى فى تدعيم الاقتصاد الصهيونى، وتدمير الاقتصاد العربى الفلسطينى، من الأيام الأولى للانتداب، وكانت البداية عندما اندفع اليهود فى شراء الأراضى فى فلسطين، وتم إنشاء العديد من المنظمات الصهيونية، لزيادة تملك الأراضى، وهى:

١ ـ جمعية الاستعمار اليهودى لفلسطين (البيكا)، أسست عام ١٨٨٣.

٢ ـ جمعية الرأسمالى اليهودى القومى (كيرن كايمت)، أسست عام ١٩٠٢.

٣ ـ صندوق الائتمان اليهودى للاستعمار، تأسس عام ١٨٩٩.

٤ ـ الصندوق الفلسطينى التأسيسى (كيرن هايسود)، تأسس عام ١٩٢٠.

على الرغم من أن تاريخ إنشاء هذه المنظمات تم قبل عهد الانتداب البريطانى، وكانت الإمكانات المالية لتلك المنظمات ضخمة، فإنها لم تنجح فى شراء الأراضى العربية فى

فلسطين، من عام ١٩٠٥ وحتى عام ١٩١٧، سوى مساحة ١٧ ألف دونم فقط، بينما بدأت المساحة المشتراة بواسطة هذه المنظمات، بعد فترة الانتداب، تزداد بشكل واضح، فبلغت المساحة المشتراة فى الفترة من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٧ حوالى مائتى ألف دونم، أى خمسة عشر ضعفًا، لما تملكته من عشر سنوات قبل الانتداب. لقد لجأت الإدارة البريطانية إلى شتى وسائل الضغط على العرب، لتمكين اليهود من تملك الأراضى، فأغلقت تلك الإدارة المصرف الزراعى بفلسطين عام ١٩٢٣، وحجزت على أراضى الفلاحين العرب تسديدًا للقروض، ورفعت نسبة الضريبة على الأراضى عام ١٩٢٤، ومنعت تصدير الحبوب والبذور النباتية، حتى يعجز الفلاح عن تسديد ديونه، ويضطر لبيع أرضه.

كما سنَّت إدارة الانتداب قانونًا حرم على الملاك الذين لا يسكنون فلسطين من التمتع بأملاكهم، فحرمت عليهم الحصول على الجنسية الفلسطينية، حتى لأبنائهم الذين ولدوا فى فلسطين، فضلًا على المضايقات فى تأشيرات الدخول والخروج (عُيِّن صهيونى مديرًا لدائرة المهاجرة والسفر)، فسهَّلت للصهاينة شراء مساحات شاسعة من الأراضى، بأثمان زهيدة. كما نقلت حكومة الانتداب امتياز تجفيف أراضى الحولة (٤٢ ألف دونم) من أيدى العرب إلى أيدى الصهاينة، كذلك أقرت انتقال (وادى الحوارث) إلى اليهود، وإجلاء البدو المزارعين عن تلك الأراضى (٤٠ ألف دونم). كما قصرت السلطات البريطانية منح الامتيازات للشركات اليهودية، لاستغلالها الموارد الطبيعية فى فلسطين، وهذه الامتيازات هي:

امتياز روتنبيرج: منحت حكومة الانتداب إلى صموئيل روتنبيرج، الصهيونى، امتيازًا لتوليد الكهرباء من نهر الأردن، وحوضه، وراوفده، ونهر اليرموك.

امتياز استغلال البحر الميت: منحت حكومة الانتداب، عام ١٩٢٧ الصهيونيين الوكيلين من شركة البوتاس (نوتوفسكى، وطولوخ) امتيازًا لاستخراج أملاح البحر الميت ومعادنه.

هكذا سلمت حكومة الانتداب البريطانى للصهاينة منبعى الثروة الرئيسية فى فلسطين، وقد استغل الصهاينة كلا المجالين لصالح المنظمات الصهيونية فحسب؛ إذ قصر استخدام العمال والموظفين على اليهود، ولم يستفد العرب من هذه المشروعات بشيء يذكر.

حماية الصناعات اليهودية

اتبعت حكومة الانتداب سياسة حماية متحيزة لليهود، بشكل واضح، خلال فترة انتدابها،فعمدت لزيادة الرسوم الجمركية على الواردات المماثلة لإنتاج الصناعات اليهودية، وتخفيف الرسوم على الموارد الأولية اللازمة لهذه الصناعات. وفى الوقت نفسه، عكست هذه السياسة بالنسبة لإنتاج العرب. ولعل فى مثل حماية إنتاج معمل الزيت اليهودى مثلًا واضحًا على ذلك. فقد رفعت ضريبة الاستيراد على الزيوت المستوردة إلى نسبة ١٢٠٪، بينما ألغت الضريبة على السمسم المستورد، والذى يزرعه العرب، وذلك حتى ينافس السمسم المستورد الإنتاج المحلى، وتهبط أسعار الأخير. ويستخدم المصنع اليهودى السمسم المستورد، أو يشترى المحلى، بأرخص الأسعار. كذلك بالنسبة لمصنع الأسمنت اليهودى، فقد رفعت الضريبة الجمركية على الإسمنت إلى نحو أربعة أضعاف ونصف، ما كانت عليه قبل إنشاء المصنع اليهودى.

حتى فى مجال الوظائف العامة، المتعلقة بالشؤون الاقتصادية، فقد عمدت الإدارة البريطانية إلى وضع السلطة فى يد الصهاينة، فعين مدير التجارة العام صهيونيًّا، ومدير دائرة الاستيراد والتصدير إنجليزيًّا ،ونائبه صهيونيًّا، والنائب العام الذى يقوم بإعداد القوانين والأنظمة صهيونيًّا، ولم يكن هناك مدير عربى واحد فى أى دائرة لها صلة بالشؤون الاقتصادية للبلاد.

فى مجال التعليم، تركت الإدارة البريطانية للصهاينة أن يستقلوا بإدارة معارفهم ومدارسهم، تشرف عليها وتديرها اللجنة الصهيونية. بينما جعلت تلك الإدارة المعارف العربية بيد إنجليز، مساعدين،وإدارة، وإشرافًا، وتفتيشًا، وتوجيهًا؛ مما لم يتمكن معه عرب فلسطين من تكوين جيل فنى، يمكن أن ينافس التقدم الصهيونى فى مجال التنظيم الصناعى.

التعليم فى عهد الانتداب البريطاني

قامت الإحصاءات والدراسات التعليمية فى فلسطين على أساس مذهبى، فالمسلمون يمثلون ٦٧٪ من سكان فلسطين حسب إحصاء ١٩٣١[٨٠٪ من السكان العرب]، فتعداد المتعلمين المسلمين حوالى ٧٥ ألفًا، من أصل ٦٩٣ألف نسمة، أى حوالى ١١٪ من

السكان، بينما لدى المسيحيين هى ٤٧,٥٪ وإن الـ ٨١٪من المتعلمين المسلمين درسوا أقل من ست سنوات.[١٥]

توفر للشعب الفلسطينى فى العشرينيات حد أدنى من فئة الجامعيين، قليلهم تخرج فى الجامعات الأوروبية والأمريكية، كما أن الضآلة الكبيرة كانت فى نسبة المتعلمات من الشعب الفلسطينى فى تلك الفترة. كان الاهتمام الأكبر فى التعليم عند المسلمين عن طريق «المجلس الإسلامى الأعلى»، والجهات الإسلامية الأخرى، حيث ارتفع عدد المدارس من ٤٢ مدرسة عام ١٩٢١-١٩٢٢إلى ١٩٠ مدرسة عام ١٩٤٣-١٩٤٥ وارتفع عدد التلاميذ من ٢٢٨٧تلميذًا عام ٢١- ١٩٢٢ إلى ١٥٣٨٩٦تلميذًا عام ١٩٤٠- ١٩٤١أى حوالى ستة أضعاف، لكن الأكثرية العظمى من المدارس الحكومية عام ١٩٤٤ كانت ابتدائية، احتوت على الابتدائية الأدنى إلى الرابع الابتدائى، ولم يكن الوضع كذلك فى القرى فحسب، بل كان فى المدن أيضًا.[١٦]

تدل إحصاءات المعارف على أن النسبة الهائلة من التلاميذ كانت موجودة فى الصفوف الابتدائية الخمسة الأولى، بينما كان عددهم فى الصفوف الثانوية ضئيلًا جدًا، وقد ربط التعليم الثانوى لتخريج مدرسين لجميع المستويات، خصوصًا الثانوية، وقد عيِّن للوظائف الإدارية العالية خريجو المدارس الأجنبية.[١٧]

سياسة الاستعمار البريطانى تجاه الفلاحين والعمال العرب[١٨]

تدنى مستوى معيشة الفلاح العربى الفلسطينى، حتى إن تقرير «لجنة جونسون- كروسبى» لعام ١٩٣٠ أشار إلى أن متوسط الدخل السنوى العادى لأى أسرة من الفلاحين هو ٣١,٣١جنيه، وبعد خصم معدل الفائدة، البالغ ٣٠٪ على معدل الدين الذى يبلغ ٢٧ جنيهًا ينزل الإيراد الصافى لدخل أسرة الفلاح إلى ٢٧,٢٣جنيه.

وناء هذا الرقم تحت شتى أنواع الضرائب المباشرة فى البلاد. فالفلاح كان يدفع ضريبة العُشر، والويركو، وضريبة الحيوانات. وقد أكد « تقرير جونسون- كروسبي» أن الفلاح كان يدفع ٣,٨٧جنيه، تسديدًا للضرائب الثلاث، ويبقى له مبلغ ١٩,٥ جنيه، كإيراد سنوى صاف لإعاشة العائلة.

لعل مما زاد الأمر سوءًا بالنسبة للفلاح العربى الفلسطينى أن أكثر المواد الضرورية لحياته كانت تفرض عليها ضرائب جمركية عالية. فضريبة السكر بلغت١٠٠٪، والدخان ١٤٩٪، والجاز٥١٪، والبنزين٢٠٨٪، والكبريت ٤٠٠٪، والأرز ١٥٪، والبن ٢٦٪. هذا بالإضافة إلى أن الفلاح كان يدفع جنيهين ضريبة جمركية على البضائع التى يشتريها، وبذلك بلغ مجموع الضرائب التى كان الفلاح يدفعها ٥,٨٧جنيه أى ٢٥٪ من دخله السنوى، بينما كان التاجر أو الموظف الذى يبلغ إيراده السنوى ١٠٠٠جنيه، يدفع ١٢,٥٪ فقط كضريبة.

هكذا كانت حالة الفلاحين العرب، عشية حركة القسام، ولم تكن أوضاعهم المعيشية أحسن بأية صورة من الصور، من أوضاع العمال العرب فى فلسطين. ففى الفترة ما بين عامى ١٩٣٢و ١٩٣٥، دخل البلاد ١٤٤,٠٩٣مهاجرًا يهوديًا، وكان معنى هذا ازدياد عدد العمال اليهود، وبالتالى تقلص عدد العمال العرب، وذلك نتيجة لتفعيل الصهيونية سلاح « العمل العبري» الذى كانت «الوكالة اليهودية» والشركات اليهودية تطبقه، حيث بلغ عدد العمال اليهود فى الصناعات المختلفة ١٩,٢٣٥عاملًا فى عام ١٩٣١، وارتفع العدد إلى ٧٤ألف عامل فى ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٥. ويضاف إلى ذلك أن ١٨,٣٨٠مهاجرًا يهوديًا بين عامى ١٩٣٢، ١٩٣٦ كان يملك كل واحد منهم أكثر من ١٠٠٠ جنيه، ومن هذه المبالغ استثمر نحو ٨,٦٥٤,٠٠٠جنيه فى صناعات وحرف يهودية حتى آخر السنة المالية ١٩٣٤/ ١٩٣٥. وقد أسفر هذا كله عن وجود أكثر من ٢٥ ألف عامل عربى عاطل فى موسم البرتقال لعام ١٩٣٥- ١٩٣٦.

نتيجة السياسة التى اتبعتها حكومة الانتداب البريطانى، من إفقار الفلاحين، وطرد للعمال، واتباع سياسة «العمل العبرى» و«احتلال العمل»، ساءت الأحوال المعيشية للشعب الفلسطينى بكل طبقاته وفئاته؛ مما أدى إلى مقاومة هذه الطبقات للحكومة البريطانية، كل حسب طريقته، والاضطهاد الواقع عليه، حيث لجأ الفلاحون إلى طرق الكفاح الإيجابى، فشنوا بعض الهجمات على المستوطنات وسادت الصدامات الطائفية بين العرب واليهود، وإن كانت هذه الصدامات وطنية وطبقية، فى جوهرها، بفعل ممارسات المستوطنين اليهود ومؤسساتهم ضد المواطنين العرب، فإن البرجوازية الفلسطينية الناشئة أخذت تعبر عن مقاومتها بشكل مباشر أو عن طريق طلائعها المثقفة. ففى نيسان/ أبريل ١٩٢٢، عكف

بعض المثقفين العرب الفلسطينيين على تأسيس كلية إسلامية، تعبيرًا عن مقاومة المثقفين لسياسة الانتداب التعليمية الرامية إلى تضييق التعليم، كما تألفت جمعية اقتصادية عربية، ودار البحث حول إمكانية تأسيس بنك عربى للتخلص من رأس المال الأجنبى.[١٩]

أما الطبقة المتوسطة، فقد بدأت تدرك الخطر المحدق بها، فالمالك الصغير بوسائله القديمة غير المتطورة يدرك أنه لا يستطيع المحافظة على مركزه فى وجه العلم اليهودى، والتاجر الصغير ينظر إلى اليوم الذى من المحتم أن تدفع به المشروعات اليهودية إلى خارج السوق. والموظف يجد أن اليهود يشغلون الوظائف الحكومية المهمة فى مختلف أنحاء البلاد،فى حين يستبعد العرب من هذه الوظائف فى كل مكان.[٢٠]

حركة عز الدين القسام[٢١]

تلفت الشيخ القسام من حوله إلى أوضاع البلاد العربية، فإذا هى ممزقة، يعيث فيها الاستعمار فسادًا، وكل شعب منشغل بحاله، وبالمشكلات التى أوجدها له الاستعمار، فكان قول القسام: «إن علينا، عرب فلسطين، الاعتماد على أنفسنا، وعلى إمكاناتنا الذاتية، لا ننتظر حتى تهبط علينا النجدات من السماء، ولا حتى تصلنا من وراء الحدود».

امتاز القسام عن غيره فى تلك الفترة بتركيزه على الاستعمار البريطانى، وإدراكه بأنه العدو الرئيسى الذى تجب محاربته، فقد ملك القسام هذا الوضوح فى تحديد العدو، فى الوقت الذى كانت فيه الدول العربية تتجنب الصدام مع بريطانيا، وتسعى إلى مفاوضتها. كان القسام، من خلال عمله ونشاطه يحذر الناس من الخطر الصهيونى. ففى إحدى خطب الجمعة، عام ١٩٢٧، حذَّر القسام المصلين من التساهل مع الهجرة اليهودية، ووصفها بقوله: «إنها تحتل البلاد، وأنتم فيها»! ودعا إلى استقبال اليهود المهاجرين، القادمين بعربات الانتداب البريطانى وحمايته (كعدو، لا كمهاجر، أو ضيف). كما كان القسام فى خطبه يهاجم السماسرة، وباعة الأراضى لليهود.

لقد أهل الشيخ القسام لهذه المهمة، حسن السيرة والمعاشرة، والبراعة فى الخطابة، وكان بمقتضى وظائفه ونشاطاته يتصل بدائرة واسعة من أبناء الشعب الفلسطينى.

اهتم الشيخ بتحسين أحوال الفقراء، ومساعدتهم، وسعى فى مكافحة الأمية بينهم، إيمانًا

منه بأن ذلك يعمق الوعى بين الجماهير، ويزيدها إيمانًا بالثورة، ويشحذ عزمها للكفاح المسلح.

العناصر الكادحة التى انضمت إلى الحركة كثيرة، فمن هؤلاء أبو درَّة، بياع الجاز على الطُنبر، وأبو خليل الذى كان ينقى عود الفحم، والغلاييني الذى كان يلحم التنك الحديدى، وهو الذى أصبحت مهمته صنع القنابل البدائية.

لماذا اختار القسام رجاله من الفلاحين والعمال؟

يجيب عن ذلك القسام فى حوار دار بينه وبين الصحفى الفلسطينى عبد الغنى الكرمى،

قال له الشيخ : «انظر لقد اشتعل رأسى شيبًا، وخبرتى الطويلة تجعلنى أرجو خيرًا من الفلاحين والعمال، فهم واثقون بالله، مؤمنون بجنات الخلد واليوم الآخر، ومن كانت هذه صفاته كان أقرب الناس إلى التضحية، وأجرأهم على الإقدام. أضف إلى ذلك أنهم أقوى بنية، وأكثر احتمالًا للمشاق». وفى عام ١٩٣٢، سئل القسام عن رأيه فى أهل الشعراوية وجبل نابلس، الذين يقطعون الأشجار، ويسممون الحيوانات، وينعتهم الناس بالحرامية وقطّاع الطرق، فأجاب: «دعهم يعملوا، لأن فى عملهم رجولة سنحوِّلها، فى يوم من الأيام، إلى جهاد، وما دام المستعمر يرغب فى إماتة نفوسنا، فإن هؤلاء أقرب إلى الله، وإلى حب الجهاد، من المستكينين».

اعتقد القسام أن المدنية الحديثة التى غزت العالم الإسلامى أذابت أغلب الفئات المثقفة بالثقافة الغربية، وجعلتها بعيدة عن روح الفطرة السليمة، فلم تستطع التصدى للغرب وعساكره، لأنها أولًا مبهورة بُمثله، وثانيًا لأنها متمسكة بالقيم المادية لا الروحية.

أسباب الثورة

زادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين عامى ١٩٣٣، ١٩٣٤،حيث بلغت حوالى ٤٢ألف يهودى، بإشراف حكومة الانتداب، ومباركتها، هذا عدا الذين تسللوا بهجرة سرية،وأخذ عدد اليهود يتزايد بشكل مطرد، وقد بلغ حده الأقصى عام ١٩٣٥.[٢٢]

فيما يلى جدول توضيحى لهذه الهجرات: [٢٣]

العدد	موجات الهجرة
٢٥ألف يهودي	الموجة الأولى ١٨٨٢- ١٩٠٣
٣٥ألف يهودي	الموجة الثانية ١٩٠٤ - ١٩١٤
٣٥ألف يهودي	الموجة الثالثة ١٩١٩ - ١٩٢٣
٨٥ألف يهودي	الموجة الرابعة ١٩٢٤- ١٩٣١
٢٠٠ألف يهودي	الموجة الخامسة ١٩٣٢- ١٩٣٨

يتضح من الجدول السابق تزايد أعداد المهاجرين اليهود، علمًا بأن حجم الهجرة كان من روسيا على نحو خاص، بعد أن شارك يهود روس فى اغتيال قيصر روسيا، ألكسندر الثانى (١٨٨١)، وما تبع هذا الاغتيال من اضطهاد ملحوظ لليهود هناك، ما جعل من روسيا مركز طرد لليهود.

تأتى الموجة الثانية، التى ارتفع فيها المنسوب إلى ٣٥,٠٠٠ مهاجر، تحت ضغط اضطهاد جديد لليهود، بعد مشاركتهم فى ثورة ١٩٠٥، وفشل هذه الثورة. أما الموجة الثالثة فتساوت فى حجمها مع الموجة الثانية، رغم أن الموجة الثانية استغرقت عشر سنوات، فيما لم تستغرق الموجة الثالثة سوى أربع سنوات.

وجاء هذا الارتفاع، بعد أن تكشف مدى العداء بين ثورة أكتوبر ١٩١٧ الاشتراكية وبين الصهيونية التى أوهمت اليهود الروس بأنهم غدوا محل اضطهاد الثورة الاشتراكية فى روسيا، الأمر الذى استمر فى الموجة الرابعة.

على أن الموجة الخامسة تضمنت نسبة كبيرة جدًا من اليهود الألمان بعد أن تعرضوا لاضطهاد النازيين لهم، بمجرد وصولهم إلى الحكم هناك فى يناير/ كانون الثانى ١٩٣٣.

امتلك اليهود، مع بداية عام ١٩٣٤، نحو ٦٢ ألف دونم من أراضى فلسطين، مما زاد تشريد عدد كبير من الفلاحين العرب الفلسطينيين وتهديد آخرين بقرب تشريدهم، كما زاد عدد العاطلين عن العمل نتيجة ازدياد المهاجرين اليهود عام ١٩٣٥. [٢٤]

نصت مبادئ «الصندوق القومى اليهودي» على تسليم الأراضى خالية من الفلاحين، ففى حالة عائلة سرسق البيروتية طرد ثمانية آلاف مزارع عربى، كما طرد أهالى اثنتين

وعشرين قرية من مرج ابن عامر، فضلًا على أهالى وادى الحوارث، والحولة، وغيرها.[٢٥] ما جعل الميزان الديموجرافى فى فلسطين يبدأ فى الاختلال، لصالح المستوطنين اليهود على حساب المواطنين العرب الفلسطينيين ويوضح الجدول التالى ذلك:

توزيع السكان فى فلسطين (١٨٨٠- ١٩٣٦)[٢٦]

السنة	العرب	النسبة	اليهود	النسبة
١٨٨٠	٣٠٠,٠٠٠	٪٩٤	٢٤,٠٠٠	٪٦
١٩١٧	٥٠٤,٠٠٠	٪٩٠	٥٦,٠٠٠	٪١٠
١٩٢٢	٦٦٦,٠٠٠	٪٨٩	٨٤,٠٠٠	٪١١
١٩٣١	٨٥٠,٠٠٠	٪٨٣	١٧٤,٠٩٦	٪١٧
١٩٣٦	٩١٦,٠٠٠	٪٧٢	٣٨٤,٠٧٨	٪٢٨

توالت فى العام نفسه (١٩٣٥)، الاستفزازات الصهيونية، كالتدريب العسكرى السافر، ومهاجمة القرى العربية، وجاء اكتشاف شحنة الأسلحة المهرَّبة لليهود (١٦/ ١٠/ ١٩٣٥)، مؤيدة لمخاوف أبناء فلسطين، ولم يكن هناك أمل فى أن تستجيب الحكومة لمطالب العرب بشأن الهجرة، وانتقال الأراضى، والحكومة الذاتية، وأصبح البديل الوحيد أمام العرب، للحيلولة دون قيام «وطن قومى لليهود» فى فلسطين، هو اللجوء إلى الثورة المسلحة.[٢٧]

مع توالى الأحـداث بدأ القسام، وأتباعه، بالإعداد لثورة مسلحة ضد الإنجليز والصهاينة.

وقد غدت الأرض مخصَّبة لخوض تلك الثورة، بعد أن استنفدت كل أشكال الكفاح السلبى أغراضها، وبعد أن تدهورت أوضاع الشعب العربى الفلسطينى الاقتصادية، والاجتماعية، ما جعل جاهزية ذاك الشعب للتضحية، فى أعلى حالاتها.

***

هوامش الفصل الأول

(١) د. عيسى الماضى، كيف ضاعت فلسطين؟ دراسة للمؤثرات الاقتصادية والثقافية والسياسية فى ضياع فلسطين، ط١، الكويت، مكتبة المعلا، ١٩٨٨، ص ٢٢.

(٢) عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطينى قبل عام١٩٤٨، سلسلة دراسات فلسطينية (١٠٢)، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية،مركز الأبحاث،١٩٧٥ ، ص١٠.

(٣) المرجع نفسه،ص١١.

(٤) سميح شبيب،الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية فى فلسطين،١٩٢٠-١٩٤٨،ط١،عكا، مؤسسة الأسوار، رام الله، وزارة الثقافة الفلسطينية، ١٩٩٩، ص١٩.

(٥) د. كامل محمود خلة، فلسطين والانتداب البريطانى ١٩٢٢- ١٩٣٩، ط٢، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢، ص ٣٣

(٦) المرجع نفسه، ص٢٨.

(٧) شبيب، مصدر سبق ذكره، ص٢٤.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٥- ٢٦.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(١٠) الماضى، مرجع سبق ذكره، ص٣٧- ٤٢.

(١١) عبد القادر ياسين، الحركة الوطنية الفلسطينية، المحطات الرئيسية/ الدروس المستفادة، دار الكلمة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٧.

(١٢) خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠.

(١٣) الماضى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣- ٢٦.

(١٤) محمد على خلوصى، التنمية الاقتصادية فى فلسطين ١٩٤٨- ١٩٦٦، القاهرة، المطبعة التجارية المتحدة، ١٩٦، ص١٩- ٢٧.

(١٥) الماضى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧- ٥١.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٤٧- ٥١.

(١٧) المرجع نفسه ص٤٧-٥١.

(١٨) د. خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٨- ٦٠٢.

(١٩) ياسين، كفاح...، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.

(٢٠) عبـد القـادر ياسين (تحرير)، ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، القاهرة، مركز المحروسة، ٢٠٠٧ (انظر: معالى أحمد عصمت، البعد الطبقى، ص ١٧٩- ١٩٩).

(٢١) حسنى أدهم جرار، المعارك التاريخية على أرض الشام شعب فلسطين أمام التآمر البريطانى والكيد الصهيونى، ١٩٢٠- ١٩٣٩، عمان، دار الفرقان، ١٩٩٢، ص ٩٢- ١٠١.

(٢٢) المرجع نفسه، ص ١١٦-١١٧.

(٢٣) عبد القادر ياسين، (تحرير)، ثورة ١٩٣٦الوطنية الفلسطينية، القاهرة، مركز المحروسة، ٢٠٠٧، (انظر: فتحى عبد العليم، قراءة فى قانون السببية، ص١١- ٣١).

(٢٤) جرار، مرجع سبق ذكره، ص ١١٦- ١١٧.

(٢٥) عبد القادر ياسين (تحرير)، ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، القاهرة، مركز المحروسة، ٢٠٠٧، (انظر: محمد حسنى إبراهيم، أنشطة صهيونية عجلت بالثورة، ص٣٥- ٤٩).

(٢٦) عبد القادر ياسين (تحرير)، ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، القاهرة، مركز المحروسة، ٢٠٠٧، (انظر: فتحى عبد العليم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤).

(٢٧) جرار، مرجع سبق ذكره، ص ١١٦- ١١٧.



الفصل الثانى

الخلفية السياسية للحركة

عبد القادر ياسين

لم يكد المشهد يختلف على القسام فى فلسطين عنه فى سوريا. فضلًا على أن فلسطين قبل أن يجتزئها الاستعمار البريطانى كانت بمثابة «سوريا الجنوبية»، فإن كلا القطرين رزحا معًا تحت نير استعمار غربى؛ سوريا تحت استعمار فرنسى، أما فلسطين فكان الاستعمار البريطانى من نصيبها، والقطران وضعا تحت الانتداب، كل منهما تحت انتداب الدولة التى استعمرته. وإن كانت المقاومة صفعت الاحتلال الفرنسى، بمجرد تعديه على الأرض السورية، فيما توهم قطاع من أبناء النخبة الفلسطينية أن القوات البريطانية إنما أتت لتحرير البلاد من الحكم العثماني! لذا لم تواجه القوات البريطانية الغازية مقاومة، ووصل الأمر ببعض أبناء النخبة الفلسطينية أن شكلوا حزبًا للترحيب بالاستعمار البريطانى، وحمل الحزب اسم «الحزب العربى الموالى لبريطانيا» (٩/ ١٢/ ١٩١٧)، وحتى لا تنزعج فرنسا الاستعمارية عمد آخرون من أبناء النخبة الفلسطينية إلى تشكيل «الحزب العربى الموالى لفرنسا[١]»! على أن أيًا من الحزبين لم يمتد به العمر لأكثر من ثلاثة أشهر، تبخرت الأوهام خلالها بوعود الاستعمارين، الإنجليزى والفرنسى، بمنح الاستقلال لفلسطين ضمن الولايات التى كانت خاضعة للدولة العثمانية.

لأن حاكم القدس العسكرى، رونالد ستورز، كان يعادى اليهود فقد حث العرب الفلسطينيين على تشكيل مؤسستهم السياسية، ولكن على أساس طائفى أيضًا، وحملت المؤسسة الوليدة اسم «الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية»[٢]، وضمَّت أعيان المدن من كبار الملاك أساسًا، وهى الطبقة التى احتكرت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية على مدى عشر سنوات متصلة، هى عمر المرحلة الأولى من تلك الحركة (١٩١٩-١٩٢٩).

فى ٢٥/ ٤/ ١٩٢٠ انتدب مؤتمر سان ريمو بريطانيا على فلسطين، فأنهت الأخيرة حكمها العسكرى لفلسطين، ووصل القطب الصهيونى البريطانى، هربرت صموئيل، إلى فلسطين، ليتولى منصب أول مندوب سام بريطانى على فلسطين، ولمدة خمس سنوات متصلة، وقد بذل صموئيل، ومعه النائبُ العام الصهيونى، نورمان بنتوبتش، قصارى جهدهما لتسهيل إقامة الوطن القومى اليهودى «فى فلسطين»، كما نص «وعد بلفور»، ومن بعده «صك الانتداب» الذى أصدرته «عصبة الأمم»، فى ٢٤ يوليو/ تموز ١٩٢٢[٣]، الأمر الذى أضفى على إجراءات الانتداب البريطانى وتشريعاته المحابية للصهاينة، فى فلسطين، طابعًا شرعيًّا.

عشية صدور قرار مؤتمر سان ريمو، بانتداب بريطانيا على فلسطين، انفجرت فى ٤/ ٤/ ١٩٢٠، صدامات بين العرب واليهود، بمناسبة موسم النبى موسى، حيث يتجمع أهالى المدن الفلسطينية فى القدس قبل توجههم إلى موقع النبى موسى (نحو ٣٠كم شرقى القدس)[٤]. لم تكن الصدامات لأسباب طائفية، بل لأسباب وطنية، بعد أن اكتشف الشعب العربى الفلسطينى أن البريطانيين قد غدروا به ولم يبروا بوعدهم منح فلسطين الاستقلال بعد «تحريرها» من العثمانيين!

فى هذه الصدامات التى استمرت ثلاثة أيام متصلة سقط من الجانبين نحو ٢٥٠ إصابة، تسعة أعشارهم من الجانب اليهودى.[٥]

فى أول مايو/ أيار ١٩٢١ احتفل الشيوعيون اليهود فى تل أبيب بعيد العمال العالمى، ما أثار حفيظة الصهاينة هناك، ودفعهم إلى الاعتداء بالضرب على الشيوعيين المحتفلين، فما كان من الأخيرين إلا أن لاذوا بالمدينة الملاصقة لتل أبيب «يافا» وبالذات إلى حى المنشية الأقرب إلى تل أبيب. فظن أهالى ذاك الحى بأن اليهود الصهاينة يهاجمون حيَّهم، فتصدوا لهم[٦]، وكانت صدامات تأسست على سوء الفهم!

فى مارس/ آذار ١٩٢٤ احتفل الصهاينة بعيدهم الدينى «المساخر» وقصدوا ارتداء ملابس رجال الدين الإسلامى، ما أثار غضب المسلمين، فتصدوا للاحتفال اليهودى، وكانت صدامات عيد إستر (المساخر)[٧].

غنى عن القول أن كبار الملاك فرضوا على جماهير الحركة الوطنية الفلسطينية برنامجًا سياسيًا عجيبًا، عادى اليهود كدين، ولاذ ببريطانيا باعتبارها الحَكَم. فضلًا على أشكال كفاحية متواضعة فرضها كبار الملاك، لا تتعدى المؤتمرات، والمذكرة، والوفد، المسيَّر حينًا إلى حكومة لندن، وأحيانا إلى المندوب السامى البريطانى فى القدس، للجأر بالشكوى وتسول حل ما!

فيما حرصت «الجمعيات الإسلامية - المسيحية» على عقد مؤتمر وطنى فلسطينى دورى، مرة كل عام، لكن صدمة كبار الملاك بفرض «عصبة الأمم» الانتداب البريطانى على فلسطين شل قيادة الحركة الوطنية، وأفقدها القدرة حتى على عقد المزيد من المؤتمرات الوطنية، بعد المؤتمر السادس (١٩٢٤).

غير أن جملة أمور رفعت منسوب السخط الشعبى عام ١٩٢٨ فكان هجوم الجراد وتفشى وباء الطاعون، ووصول الركود الاقتصادى إلى البلاد، سابقًا العالم كله بعام، وامتداده فى فلسطين زهاء خمس سنوات متصلة (١٩٢٨- ١٩٣٢)، ناهيك عن توسع «الوكالة اليهودية» القيادة السياسية للصهاينة، وتوالى تسرب الأراضى من بين أصابع الفلاحين العرب الفلسطينيين وارتفاع منسوب البطالة فى أوساط العمال العرب الفلسطينيين، حيث كانت هذه البطالة وذلك التسرب بفعل تشريعات الانتداب وإجراءاته، فضلًا على موجات الهجرة اليهودية التى تدفقت إلى فلسطين.

كانت البداية انعقاد المؤتمر الوطنى السابع (٢٠و٢١/ ٦/ ١٩٢٨)، بعد انقطاع خمس سنوات متصلة، وفيه اقتسمت الثورة المضادة مع الوطنيين مقاعد «اللجنة التنفيذية العربية» التى أخذت على عاتقها قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية فيما بين مؤتمرين، بل إن المؤتمر كاد يتخذ قرارًا بقبول «حكومة وطنية فى ظل الاحتلال»[٨].

فى «عيد كيبور» (١٥/ ٨/ ١٩٢٩) هتفت جمهرة صهيونية فى القدس «الحائط حائطنا»! فى إشارة إلى «حائط البراق»، الذى يقدسه المسلمون لأن الرسول الكريم(ﷺ) ربط البراق عنده، عندما صعد إلى السماء، فيما يزعم اليهود أن ذاك الحائط هو المتبقى من هيكل سليمان؛ لذا يطلقون عليه اسم «حائط الهيكل».

استفزت الهتافات الصهيونية مشاعر المسلمين، فخرجوا من صلاة الجمعة(١٦/ ٨/ ١٩٢٩) فى المسجد الأقصى بالقدس، فى مظاهرة حاشدة اصطدمت بحشود من اليهود الاستفزازيين. فكانت «هبَّة البراق» التى فاقت الصدامات الثلاثة السابقة فى قوتها، وامتدادها المكاني(القدس، الخليل، وصفد)، والزمانى (أسبوعين)، وحجم الخسائر البشرية (مقتل ١٣٣ يهوديًّا، وجرح ٣٣٩ آخرين، مقابل قتل١١٦، وجرح ٢٣٢). فيما ألقى القبض على أكثر من ألف شخص تسعة أعشارهم من العرب الفلسطينيين[٩].

تكمن الأهمية التاريخية لهذه الهبَّة فى إنهائها مرحلة، وابتدائها أخرى فى حياة الحركة الوطنية الفلسطينية، أولًا: بعد أن تأكد لكل ذى عينين أن أشكال الكفاح التى فرضتها القيادة التقليدية للحركة الوطنية على جماهيرها كانت دون المستوى المطلوب فى المواجهة مع الأعداء؛ وثانيًا: بعد أن سقط قناع «الحَكَم» عن وجه الإنجليز، وتجلى تحيُّزهم للصهاينة، بالقول، والموقف، والسلاح؛ وثالثًا: بعد أن شبَّت البرجوازية العربية الفلسطينية عن الطوق، فتهيأت للدخول شريكًا صغيرًا فى قيادة الحركة الوطنية. لكن هذا الشريك الصغير حقق حضورًا فاق حجمه، أضعاف المرات؛ أولًا: بعد آن تجلى إفلاس البرنامج السياسى لكبار الملاك، وثانيًا: لأن البرجوازية حملت، آنذاك، برنامجًا ثوريًّا، يتفق ومصالحها، وهى الطبقة الوليدة، بلا أسنان أو مخالب، وهى الرازحة تحت نير عدو مزدوج (الاستعمار البريطانى، والصهيونية)، فضلًا على أنها مقطوعة الصلة بالسوق الرأسمالية العالمية، ناهيك عن توقها للاستقلال بسوقها المحلية. ما أهَّل تلك البرجوازية للاستقواء بالحركتين العمالية الفلاحية، الفتيتين، والنافرتين من كبار الملاك وبرامجهم، والمعانيتين من نير الانتداب والصهيونية، أضعاف ما كانت تعانيه بقية الطبقات والفئات الاجتماعية العربية الفلسطينية من هذين العدوين.

اللافت أن نفور الفلاحين من برنامج كبار الملاك، المتزايد فى اطراد أفضى إلى تشكيل فلاحين لعصابة «الكف الأخضر»، التى اتخذت من اغتيال الإنجليز والصهاينة أسلوبًا للانتقام[١٠].

عند هذا الحد، طلب الساعد الأيمن للقسام، أبو إبراهيم الكبير(خليل محمد عيسي)، من قائده توظيف هذا كله، وإعلان الثورة المسلحة، لكن القسام طلب منه التريث؛ فلم يكن تنظيم القسام قد استكمل استعداداته فى السلاح، والتدريب، والعدد، كما لم تكن الجماهير الفلسطينية قد أدارت ظهرها، تمامًا، للقيادة التقليدية للحركة الوطنية. واختلفت المراجع

فى رصد رد فعل أبى إبراهيم الكبير، فمن قائل بأنه استنكف، والتزم البيت، ومن قائل بأنه انشق عن التنظيم، غاضبًا مستاءً من تلكؤ القسام[١١]. فيما نفى هو نفسه أيًا من الاستنكاف، أو الانشقاق[١٢].

حملت الثلاثينيات الحركة الوطنية من التخبط إلى انفتاح الرؤية، حيث غدا الاستعمار البريطانى «أُس البلاء»، والصهيونية مجرد ذيل له، واعتمدت أساليب كفاح تصاعدية ضد هذين العدوين، وانحسر نفوذ كبار الملاك، نسبيًا، دون أن ينتهى. وعبر اشتداد عود البرجوازية العربية الفلسطينية، فى غير مجال؛ اقتصاديًا تأسست البنوك (البنك العربى [١٩٣٠]، والبنك الزراعى والصناعى العربى [١٩٣٣])، وسياسيًا تمكنت تجمعات جماهيرية محسوبة على البرجوازية من عقد مؤتمراتها لأول مرة؛ فانعقد فى القدس فيما بين ١٢-١٤/ ١١/ ١٩٢٧، مؤتمر للصحفيين، تمخض فنتج عنه قرارات سياسية متقدمة، تختلف فى الدعوة إلى الوحدة الوطنية، وانعقاد المؤتمر الوطنى الفلسطينى السابع، ومقاومة النعرات الطائفية. أما المؤتمر الأول للطلاب، فقد امتطاه أبناء الأعيان من طلبة الجامعة الأمريكية فى بيروت، وفرضوا عليه رؤيتهم، فكانت قراراته(١٢/ ٩/ ١٩٢٩)، أقرب إلى جناح كبار الملاك الذين لم يستسلموا أمام التقدم المطرد لبرنامج البرجوازية، فحثوا قريناتهم من النساء على عقد مؤتمر للحركة النسائية، انعقد فعلًا فى القدس فى ١٩/ ١٠/ ١٩٢٩، وانتهى إلى تنظيم مظاهرة بستين سيارة فارهة، طافت شوارع القدس، وتوسلت إلى المندوب السامى البريطانى، كى يعفوا عمن أدانتهم المحاكم الانتدابية من الثوريين العرب الفلسطينيين.أما رجال الأعمال العرب الفلسطينيون،فعقدوا موتمرًا اقتصاديًا، فى ١٤/ ١١/ ١٩٢٩، احتج على الحماية الجمركية للصناعات اليهودية فى فلسطين، ودعا إلى تأليف شركة وطنية، لتنشيط الزراعة، والصناعة، والتجارة الوطنية. كما طالب المؤتمر بتأسيس بنك زراعى، وإنجاز مشروع « بنك مصر ـ فلسطين». وسياسيًا، أيد المؤتمر «مطالب الأمة العربية الفلسطينية السياسية»[١٣].

فى الوقت الذى نجح فيه العمال العرب الفلسطينيون - بدعم الحزب الشيوعي- فى عقد مؤتمرهم الأول، مطلع ١٩٣٠، فكان الأول فى أرجاء الوطن العربى. وتمخض المؤتمر فنتج عنه قرارات مهمة، مثل: الاحتجاج على منح حكومة الانتداب امتياز البحر الميت لشركات أجنبية، فيما دعا المؤتمر إلى العمل على حماية العامل، وإيجاد عيادات

طبية مجانية له، والعمل «لمصلحة الوطن، الاشتراك فى كل أمر لا يتنافى مع مصالح العمال ومطالبهم». والاحتجاج لدى حكومة الانتداب على الغرامات التى فرضتها، والقوانين التى سنتها، والهجرة اليهودية التى سهَّلتها، والصحافة التى خنقتها. وشدد المؤتمر على «استقلال فلسطين، استقلالًا تامًّا، ضمن الوحدة العربية»، والإفراج عن المعتقلين السياسيين[١٤].

فيما نهضت الحركة الفلاحية بعد ارتفاع وتائر اقتلاع الفلاحين من الأرض، لحساب الصهاينة ومؤسساتهم. ففى ٣٠/ ١١/ ١٩٢٩، اقتُلع فلاحو «وادى الحوارث» (٢٥٤٦ أسرة)، شمال شرق فلسطين، من الأراضى التى كانوا يفلحونها هناك (نحو ألف دونم)، بعد أن باعها ملاكها من آل التيان (للبنانيين)، بسبب حرمان حكومة الانتداب البريطانى العرب غير الفلسطينيين من تملك أراضٍ فى فلسطين، واتضح أن آل التيان كانوا قد رهنوا تلك الأرض ليهود! أما فلاحو مرج ابن عامر فقد اقتلعوا (١٩٢٠) من الأراضى التى كانوا يزرعونها (نحو ٨٠ ألف دونم)، بعد أن باعتها عائلة سرسق اللبنانية، بثمن بخس، ألحقوها بخمس قرى، قرب يافا (نحو ٢٣٠ ألف دونم)، فى ١/ ٨/ ١٩٢٤[١٥].

عاشت القيادة الوطنية الفلسطينية، غداة هبَّة البراق، أيام شد وجذب بين تياريها؛ المهاود الذى يمثله كبار الملاك، والثورى الذى تُعبر عنه البرجوازية الفتية. إلى أن وصل أدولف هتلر إلى الحكم فى ألمانيا، مطلع ١٩٣٣، فارتفع منسوب الهجرة اليهودية، المتدفقة إلى فلسطين على نحو غير مسبوق؛ مما زاد الاحتقان الشعبى العربى الفلسطينى. ويظهر الجدول التالى منحنى الهجرة اليهودية إلى فلسطين، خلال سنوات الاحتلال البريطانى، وحتى سنة ١٩٣٥.

موجات الهجرات إلى فلسطين[١٦]

الفترة	حجم الهجرة
١٩٢١ - ١٩٢٥	٦٠,٧٦٥
١٩٢٦ - ١٩٣٠	١٠,١٧٩
١٩٣١ - ١٩٣٥	١٤٧,٥٠٢
المجموع	٢١٨,٤٤٦

بعد أن كانت الموجة الأولى إلى فلسطين، غطت سنوات ١٨٨٢ - ١٩٠٣، وضمَّت نحو

ثلاثة آلاف يهودى، هربوا من الاضطهاد القيصرى لهم فى روسيا، بعد أن اشتركت عناصر يهودية روسية فى اغتيال قيصر روسيا، ألكسندر الثانى (١٨٨١)، فيما اقترب رقم الموجة الثانية ١٩٠٤-١٩١٤ من الأربعين ألف مهاجر، معظمهم صهاينة، اضطهدتهم السلطات القيصرية فى روسيا بعد أحداث ١٩٠٤- ١٩٠٥ الثورية.

نأتى إلى أرقام الجدول، التى فاقت الستين ألفًا، فى النصف الأول من العشرينيات، التى قضاها الصهيونى البريطانى العريق، هربت صموئيل مندوبًا على فلسطين، مع ما اقترن بعصره من محاباة على المكشوف للصهيونية، فى الإجراءات، والتشريعات، فى شتى المجالات. لكن المنحنى عاد وهبط إلى نحو سُدس الرقم السابق عليه، أولًا بفعل تعثر المشروع الصهيونى فى فلسطين، وثانيًا تحت ضغط الضائقة الاقتصادية التى أخذت بخناق فلسطين مبكرة عامًا كاملًا عن الأزمة الاقتصادية العالمية، فغطت فلسطين ما بين ١٩٢٨- ١٩٣٢. حتى سنوات تلك الضائقة شهدت ارتفاعًا ملحوظًا فى الهجرة اليهودية من فلسطين، تجاوزت ستة آلاف يهودى. فيما توقفت تلك الهجرة المضادة، ابتداءً من عام ١٩٣٢، وقد وصل فلسطين، فى السنة المذكورة؛ ٩,٥٥٣، وارتفع الرقم، فى العام التالى، إلى ٣٠,٣٢٧، وقفز إلى ٤٢,٣٥٩ يهوديًا، فى العام ١٩٣٤، وإلى ٦١,٨٥، فى عام ١٩٣٥[١٧].

تداعى الشباب العربى الفلسطينى إلى مؤتمر يناقش الخطر الصهيونى المتزايد، ومحاباة الانتداب للصهيونية. فاستجاب بعض أعضاء «اللجنة التنفيذية العربية» لمطلب الشباب، ودعوا إلى اجتماع عام فى دار اللجنة بالقدس، يوم ٢٤/ ٢/ ١٩٣٣، وحضره ٧٠ مندوبًا، من شتى أنحاء فلسطين، مثلوا التيارين الرئيسيين فى قيادة الحركة الوطنية، وافتتح رئيس اللجنة التنفيذية، موسى باشا كاظم الحسينى الاجتماع، مؤكدًا أنه «للمشاركة فى الرأي»، تلاه عونى عبد الهادى، الذى تحدث عن الهجرة، وانتقال الأراضى للمستوطنين اليهود ومؤسساتهم. فيما نوَّه الشيخ عبد القادر المظفَّر بأن «الخطط السلبية لا تفيد»، فى الوقت الذى دعا فيه جمال الحسينى إلى تطهير الصفوف من السماسرة. واقترح عمر الصالح البرغوثى، ومحمود الدجانى الامتناع عن دفع الضرائب، فيما تقدم قطب الثورة المضادة فخرى النشاشيبى باقتراح مؤداه البدء بالعصيان المدنى، ما دام الكلام ليس عليه جمركـ! انتهى الاجتماع إلى تشكيل وفد، برئاسة موسى كاظم، لمقابلة المندوب السامى، وتقديم

مذكرة له، ضد سياسة حكومة الانتداب فى الهجرة وانتقال الأراضى، والمطالبة؛ بسد باب الهجرة، ومنع انتقال الأراضى للمستوطنين اليهود، وامتناع السياسيين العرب الفلسطينيين عن حضور الحفلات التى يقيمها مسؤولو الانتداب. وإذا لم يستجب المندوب السامى، فثمة اجتماع آخر للنظر فى البديل.

أما المندوب السامى فرد بأنه ملتزم بصك الانتداب، وبالتالى لا يستطيع وقف الهجرة وانتقال الأراضى. وعلية تقرر عقد اجتماع آخر فى يافا، يوم ٢٦/ ٣. وقبل أربعة أيام من الاجتماع أصدر موسى باشا بيانًا، أكد فيه أن حكومة الانتداب تعمل على إجلاء الشعب العربى الفلسطينى عن بلاده، وإحلال غرباء محله. ودعا الحسينى إلى التخلص من الخصم البريطانى «بكل طريقة مشروعة!»[١٨].

فى الموعد المضروب التقى نحو ٦٠٠ عربى فلسطينى، وإن تغيب رأس الثورة المضادة، راغب بك النشاشيبى. واقترح عبد الغنى سنان استقالة رئيس المجلس الإسلامى الأعلى، ورئيس بلدية القدس، وغيرهما. فرد عضو المجلس الإسلامى الشيخ صبرى عابدين؛ برفض إقحام الوظائف الدينية فى الاستقالات! وأشار الخطباء إلى سياسة اللا تعاون فى كل من مصر والهند. واقترح راغب الدجانى تشكيل لجنة لدراسة مسألة المقاطعة وشدد أحمد الشقيرى على ضرورة استقالة الحاج أمين الحسينى، رئيس المجلس الإسلامى، وراغب النشاشيبى من رئاسة بلدية القدس. وفاجأ رئيس بلدية يافا، عاصم السعيد، المؤتمر بأن راغب النشاشيبى هاتفه معلنًا استعداده للاستقالة «إذا أقرتها الأمة»! فيما وقف الحاج أمين الحسينى، ورفض «التورط» فى الاستقالة![١٩].

بعد انسحاب أنصار النشاشيبى وافق الاجتماع على «اللاتعاون الاجتماعى»؛ أى مقاطعة الحفلات، والمجاملات مع الحكومة! كما وافق الاجتماع على مقاطعة البضائع الإنجليزية والصهيونية. وعلى أن تقوم لجنة على متابعة تنفيذ هذا كله تضم أعضاء مكتب اللجنة التنفيذية، وعضوًا واحدًا عن كل حزب(*)، على أن تقدم تقريرها بعد شهرين. بيد أن هذه

(*) جاء ترتيب تلك الأحزاب، من حيث تاريخ التأسيس، على النحو التالي:

١- مؤتمر الشباب العربى الفلسطينى، تأسس فى يناير/ كانون الثانى ١٩٣٢، وترأسه راسم الخالدى، وخلفه يعقوب الغصن.

٢- حزب الاستقلال العربى، تأسس صيف ١٩٣٢، وترأسه عونى عبد الهادى.

٣- حزب الدفاع الوطنى، تأسس فى ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٤، وترأسه راغب النشاشيبى. =

اللجنة لم تتعد الحبر على الورق، وبالتالى تم قبر فكرة «اللاتعاون» قبل أن تولد! فيما نفَّذ الشعب نفسه اللاتعاون ذاك[٢٠].

فى الوقت الذى تزايد فيه الخطر المحدق بفلسطين، مع ارتفاع منسوب الهجرة، ومعها منسوب الأراضى المتسربة إلى المستوطنين اليهود ومؤسساتهم، فإن الحاج أمين الحسينى اختار أن يشكل وفدًا إسلاميًّا طاف الأقطار الإسلامية لاستجداء معونات من أجل عمارة المسجد الأقصى! فيما صبَّت الصحف الوطنية جام غضبها على حكومة الانتداب لمحاباتها الصهيونية فى الهجرة وانتقال الأراضي[٢١].

حين أحست «اللجنة التنفيذية العربية» بأن زمام الموقف بدأ يفلت من بين يديها التأمت وقررت تنظيم مظاهرات فى المدن الفلسطينية على التوالى، وبدون إذن السلطات. وفى يوم ١٣/ ٩/ ١٩٣٣، نظمت مظاهرة القدس، التى تصدرها زعماء البلاد، لكن الشرطة قمعت تلك المظاهرة، وقدمت بعض المتظاهرين للمحاكمة، فيما تمكن الأعيان من إخلاء سبيل أبنائهم دون محاكمة![٢٢]

توالت المذكرات على المندوب السامى تحذر من مغبة الاستمرار فى محاباة الصهاينة. وشارك فى تلك المذكرات «مؤتمر الشباب العربي»، وعدد من وطنيى نابلس. فيما توالت اجتماعات «اللجنة التنفيذية العربية»، يوم ٨/ ١٠، فى محاولة يائسة للخروج من المأزق. وانتهى الاجتماع الثانى إلى دعوة الأمة للإضراب يوم ١٣/ ١٠، ترافقه مظاهرة فى القدس يتقدمها موسى كاظم، وأعضاء اللجنة التنفيذية. واللافت أن مقررات اللجنة وعدت بالعدول عن سياسة الاحتجاج والخطب، وأن «عرب فلسطين قد يئسوا، يأسًا تامًّا من الحكومة»[٢٣]، إنه منطق «ما كانش العشم»!

فى ٩/ ١٠ ذكَّرت سلطات الانتداب اللجنة التنفيذية بأن البوليس سيقمع المظاهرة استنادًا إلى القانون! وفى اليوم التالى، قابل وفد اللجنة التنفيذية - برئاسة موسى كاظم- القائم بأعمال المندوب السامى الذى وعدهم بنقل مطالبهم إلى المندوب السامى عند عودته إلى البلاد[٢٤].

= ٤- الحزب العربى الفلسطينى، تأسس فى مارس/ آذار ١٩٣٥، وترأسه جمال الحسينى.
٥- الإصلاح، تأسس فى يونيه/ حزيران ١٩٣٥، وترأسه حسن فخرى الشاشيبى.
٦- الكتلة الوطنية، تأسس فى أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥، وترأسه عبد اللطيف صلاح.
(خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥١٣- ٥٢٢، ٥٦٣- ٥٦٥، ٥٧٣- ٥٧٨).

فى الموعد المحدد انطلقت المظاهرة فى القدس، بالرغم من تحذيرات الانتداب، وقد فرَّقها البوليس بالقوة. ما حدا باللجنة التنفيذية للالتئام، وتحديد ٢٧/ ١٠ يومًا للإضراب والتظاهر فى يافا، وقدم وفدان من سوريا وشرقى الأردن للمشاركة فى مظاهرة يافا، خاصة أن ميناء تل أبيب اليهودى كان سيفتتح آخر الشهر نفسه، مع كل ما سيترتب عليه من آثار كارثية على ميناء يافا العربى وعماله. وكانت مظاهرة يافا هذه بداية انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٣، التى فاقت كل ما سبقها من صدامات وهبَّة فى قوتها، وفى امتدادها المكانى والزمانى، وفى توجيه الحركة الوطنية ضربتها الرئيسية إلى الإنجليز، وفى مدى الخسائر البشرية[٢٥].

قبل يومين من موعد المظاهرة ترأس موسى كاظم وفدًا من اللجنة التنفيذية قابل المندوب السامى الذى أخبرهم بأنه لا يسمح بالتظاهر، ونصحهم بتقديم مذكرة إلى دار الحكومة فى يافا! وشرح كاظم للمندوب السامى أسباب اضطرار اللجنة التنفيذية للجوء إلى التظاهرات السلمية. وفى مقدمة تلك الأسباب الضغط الشعبى، فيما أحرجت حكومة الانتداب اللجنة التنفيذية، بدل أن تنقذها![٢٦]

وفى يوم الإضراب (٢٧/ ١٠) خرج المصلون من جامع حسن بك بحى المنشية فى يافا بما يربو على سبعة آلاف متظاهر متوجهين إلى دار الحكومة، فتصدت لهم قوات هائلة من الشرطة، وحرس الحدود، والفرسان، والقنَّاصة المدججين بالسلاح والمحتمين بالمدرعات. وتحولت شوارع يافا إلى ساحة حرب حتى الرابعة من مساء اليوم نفسه.فأعلنت سلطات الانتداب الطوارئ فى يافا[٢٧].

فى اليوم التالى نظمت مظاهرة مماثلة فى حيفا ضمت زهاء ألفى متظاهر، حاولوا احتلال محطة سكة الحديد، ومركز البوليس الرئيسى، وفى اليوم نفسه تظاهر نحو ثلاثة آلاف فى نابلس، حاولوا احتلال محطة سكة الحديد وضرب «بنك باركليز» البريطانى. واشتعلت المظاهرات فى القدس، يومي٢٨و٢٩/ ١٠، ومعها الصدامات الدامية، وأقفل المتظاهرون المحلات اليهودية، ونظمت قوات الجيش والبوليس مجزرة دموية فى القدس القديمة. وفى الليل أطلقت النار على مبنى الحكومة. وتوالت المظاهرات الصدامية فى كل من غزة، وعكا، وطولكرم. فأصدرت حكومة الانتداب قانون الطوارئ فى ٣٠/ ١٠، واستقدمت نجدات عسكرية من قواتها فى مصر وشرق الأردن. وفرضت الرقابة على الصحف،

فاحتجبت احتجاجًا، ومنعت الحكومة نفسها الاحتفال بدفن الشهداء، فعاندتها الجماهير، فيما استمر الإضراب السياسى العام حتى ٣/ ١١، وقد جاء توقفه بقرار من «اللجنة التنفيذية العربية»[٢٨].

فى الانتفاضة المذكورة، قُتل رجل بوليس واحد، وأصيب ٢٦ آخرون، فيما قُتل ٢٦عربيًا فلسطينيًا، وجُرح نحو ١٨٧آخرون. واللافت للنظر أن يهوديًا واحدًا لم يصب فى الانتفاضة[٢٩] كل هذا بينما سماحة مفتى القدس الأكبر الحاج أمين الحسينى يجمع الأموال لإعمار الأقصى، تاركًا قادة البلاد لحيرتهم وحرجهم!

إذا كانت عصبة «الكف الأخضر» قد جاءت لرفض أداء اللجنة التنفيذية، فإن عصابة أبو جلدة جاءت فى سياق آخر.

أبو جلدة هذا هو أحمد المحمود، من قرية الطمُّون، شمال شرق نابلس، تنازع مع بعض أقاربه، وانتهى النزاع بمقتل ثلاثة منهم، فألقى القبض على أبو جلدة، وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، لكنه تمكن من الهروب، وأصبح خارجًا على القانون، وسرعان ما التف حوله عدد من المطاريد، أهمهم صالح أحمد المصطفى(الشهير بالعرميط)، من قرية بيتا، جنوب نابلس.[٣٠] .

بدأ أبو جلدة نشاط عصابته، فى منطقتى نابلس، والجليل الوعرتين، منذ صيف ١٩٣٣، ودعا إلى مقاومة حكومة الانتداب.لكن أحد أفراد عصابته وقع فى قبضة أجهزة أمن الانتداب فى ٢٥/ ٩/ ١٩٣٣، فيما شاركت عصابة أبو جلدة، بجهدٍ مجدٍ، فى انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٣. حيث قاد هجومًا برجاله، على مركز بوليس، وقَتل جنديين. وفى صيف ١٩٣٤ تمكنت أجهزة أمن الانتداب من إلقاء القبض على أبى جلدة والعرميط، وقضت محكمة انتدابية بإعدامهما، وقد كان. فيما وجد محمود أبو حبرون(من وشى بأبى جلدة ورفيقه) مذبوحًا فى منزله![٣١]

يبدو أن تخويف كبار الملاك لجماهير الشعب مما جرى لها فى انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول قد آتى أكله، كما أن الجناح الثورى فى قيادة الحركة كف عن المطالبة بالمظاهرات الصدامية، فقررت «اللجنة التنفيذية العربية» فى اجتماعها، مطلع يناير/ كانون الثانى ١٩٣٤، القيام بمظاهرات سلمية، بعد الحصول على تصريح من سلطات الانتداب، فى أول أيام عيد الفطر(١٧/ ١/ ١٩٣٤)[٣٢]. ولم يكن غريبًا أن توافق سلطات الانتداب على تنظيم تلك المظاهرات، وإن حددت تلك السلطات خط سير كل مظاهرة.

فى ١٦/ ٣/ ١٩٣٤، توفى موسى كاظم باشا، متأثرًا بالجراح التى أصابته فى مظاهرة (٢٧/ ١٠/ ١٩٣٣)، ومعه غابت، تمامًا، «اللجنة التنفيذية العربية».

فى ١٣/ ٧/ ١٩٣٤، قررت قيادة «مؤتمر الشباب» تشكيل مجموعات لحراسة الحدود والسواحل الفلسطينية، فى سبيل التصدى للهجرات اليهودية السرية، التى بلغ متوسطها السنوى نحو ١,٥٠٠ مهاجر يهودى. وقرب مستوطنة ناتانيا، نشب اشتباك بين إحدى هذه المجموعات وعصابة صهيونية مسلحة، سقط فيها ثمانية من الجانب العربى (١٧/ ٩/ ١٩٣٤) فأصدر المندوب السامى بلاغًا اعتبر فيه مجموعات الحراسة العربية مشوشة على جهود الإنجليز لمنع الهجرة السرية! وتعهد المندوب السامى بالقيام بهذه المهمة نيابة عن المجموعات العربية! وسرعان ما شكل العمال العرب الفلسطينيون حاميات لمنع الصهاينة من تنفيذ «العمل العربي»، و«احتلال العمل»[٣٣].

باختصار اتضح أن عام ١٩٣٤ تميَّز بهدوء نسبى عن العام الذى سبقه، وكأن سلطات الانتداب نجحت فى احتواء الحركة الوطنية وترجيح كفة كبار الملاك فى قيادتها، ولكن إلى حين.

فى ١٦/ ١٠/ ١٩٣٥ سقط برميل من الأسمنت، وارد ضمن ٧٣ برميلًا من بلجيكا إلى الصهاينة فى تل أبيب، عبر ميناء يافا العربى، فتناثرت منه قطع الأسلحة؛ ما دفع عمال الميناء العرب إلى إعلان الإضراب، فيما عاد الاحتقان الشعبى إلى ما كان عليه فى انتفاضة ١٩٣٣[٣٤].

وجه الرأس الجديد للحركة الوطنية، مفتى القدس الحاج أمين الحسينى دعوة إلى الأحزاب كى تأتلف، فتشكلت فى ٢١/ ١٠ «لجنة الأحزاب الفلسطينية»، فيما عدا «الاستقلال» الذى كان جمد نشاطه، منذ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٣. وتقدمت اللجنة الوليدة إلى المندوب السامى بمذكرة فى ٢٣/ ١٠ طالبته فيها بمصادرة السلاح المضبوط، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع تهريب السلاح مستقبلًا. وفى ٢٦/ ١٠ أضربت البلاد إضرابًا شاملًا، رغم منع سلطات الانتداب[٣٥].

هكذا تكون الشروط الموضوعية قد نضجت لإطلاق حركة القسام الثورية:

- **فالجماهير الشعبية فى ذروة استعدادها للتضحية فى سبيل وطنها، وفى وجه عدوها**

المزدوج، البريطاني – الصهيونى. بعد أن سأمت تلك الجماهير من تردد قيادة الحركة الوطنية، التى توزعت إلى تيارين، مثل أولهما كبار الملاك (أصحاب المصالح الحقيقية)، وهو تيار مهاود للإنجليز، أما التيار الأخير فثورى محدود، وصل أقصاه بالمظاهرات الصدامية ودعوات مقاطعة حفلات الانتداب. وقد جاء حادث ميناء يافا ليصب المزيد من الزيت على الاحتقان الشعبى العربى الفلسطينى.

- **والصهيونية مرتبكة، منقسمة على نفسها،** بعد انشقاق فلاديمير جابوتنسكى على الحركة الصهيونية (١٩٣١)، التى اتهمها بالتباطؤ فى تنفيذ المشروع الصهيونى. ووصل الأمر بقيادة الحركة الصهيونية إلى أن قتلت الرجل الثانى فيها، حايم أورلوزوروف (١٩٣٣)، لمجرد أنه نادى بعدم إقامة المشروع الصهيونى إلا عبر التفاهم مع الشعب العربى الفلسطينى.
- **والانتداب البريطانى بدا عاجزًا عن إدارة البلاد بالأساليب التقليدية،** وقد فاجأته حركة الجماهير العربية الفلسطينية بقوتها، واندفاعها، فى وقت فاقم غزو القوات الإيطالية للحبشة صيف ١٩٣٥ من مأزق الانتداب فى فلسطين.
- **أما الشرط الذاتى فكان فى مستوى يؤهل القسام لتفجير حركته الثورية؛** بعد أن نجح فى تجنيد نحو ٢٠٠ عضو، عبأهم معنويًّا، ودربهم على السلاح، فيما توفر لدى القسام ما يربو على ١٠٠ بندقية، والكثير من الذخيرة. لذا اجتمعت قيادة حركة القسام فى ١٢/ ١١/ ١٩٣٥، وقررت الخروج بنحو عشرين رجلًا إلى أحراش يعبد، حيث المنطقة الوعرة، وقبضة أمن الانتداب المتراخية، وجماهير الفلاحين المحتقنة، بما يزيد على غيرها من الطبقات والفئات الاجتماعية.

* * *

هوامش الفصل الثاني

(١) انظر:

- كامل محمود خلة، **الانتداب البريطاني وفلسطين ١٩٢٢-١٩٣٩**، ط٢، طرابلس - ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢،ص ٢٠٠-٣٠٣.

- عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٣٥-٣٧.

(٢) انظر:

- عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**،ط١،بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥، ص٣٣- ٣٨.

- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص٣١-٣٤، ٦٢، ١٥٦-١٦٠.

- خلة، مصدر سبق ذكره، ص٢٠٢- ٢١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٩-١٣١، ١٥٣-١٧١.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٤-٢٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٦-٢٦٢.

(٦) غنيم، مصدر سبق ذكره، ص ٩٦- ٩٨.

(٧) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.

(٨) محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة**، الجزء الثالث، صيدا، المكتبة العصرية،١٩٥١، ص٩٥- ٦٠.

(٩) لمزيد من التفاصيل حول هذه الهبّة، يمكن الرجوع إلى:

- خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥١- ٤٦٠.

- ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٩١- ١١٢.

- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥- ١٧٨.

(١٠) للمزيد عن عصابة «الكف الأخضر» يمكن الرجوع إلى:

- عبد الوهاب الكيالى، تاريخ فلسطين الحديث، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات العربية ١٩٧٠، ص ٢٥٢- ٢٥٤.

(١١) صبحى ياسين، الثورة العربية الكبرى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٧، ص ٣٥.

(١٢) أبو إبراهيم الكبير، في: الثورة الفلسطينية، دمشق، العدد التاسع عشر، ١٥/ ٩/ ١٩٦٩.

(١٣) للمزيد من التفاصيل، يمكن العودة إلى:

- خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٢.

- عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦، ١٢٢.

- نبيل بدران، التعليم والتحديث فى المجتمع العربى الفلسطينى، الجزء الأول، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٩، ص٣٠٤-٣٠٥.

(١٤) عبد القادر ياسين، تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية ١٩١٨- ١٩٤٨، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٠، ص١٢٦- ١٢٧.

(١٥) خلة، مصدر سبق ذكره، ص٧٦٢-٧٦٥.

(١٦) وليم فهمى، الهجرة اليهودية إلى فلسطين، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٣٦ - ٣٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(١٨) عبد الوهاب الكيالي(إعداد)، وثائق المقاومة العربية الفلسطينية ضد الاحتلال والصهيونية (١٩١٨- ١٩٣٩)، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨، ص٣٠٥- ٣١٧.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٣٢٠- ٣٢٨.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٨- ٣٣٢.

(٢١) خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٧- ٥٤٨.

(٢٢) انظر:

- المصدر نفسه، ص ٥٣٣- ٥٣٤.

- المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات، بيروت، دار الطليعة، كتاب خاص عن مجلة «دراسات عربية»، يوليو / تموز ١٩٧١. (انظر: فلاديمير لوتسكى، الإمبريالية الإنجليزية وثورة تشرين الأول١٩٣٣ فى فلسطين، ترجمة رياض يونس، ص ٢٧- ٣٠.

(٢٣) خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٦.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٣٧.

(٢٥) انظر:

- المصدر نفسه، ص ٥٤١.

- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٧.

(٢٦) خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤١.

(٢٧) انظر:

- المصدر نفسه، ص ٥٤١- ٤٤٢.

- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠- ٢٦٢.

(٢٨) انظر:

- المصدر نفسه، ص ٢٥٣، ٢٦٠- ٢٦١.

- خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٢- ٥٤٣.

(٢٩) انظر:

- المصدر نفسه، ص ٥٤٤.

- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٢.

(٣٠) حول ملابسات تشكيل «عصابة أبو جلدة»، وأعمالها، ومصيرها، يمكن الرجوع إلى:

- خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٥- ٤٤٧.

- هارون هاشم رشيد، أبو جلدة والعرميط ياما كسّروا برانيط، ط١، عمان، دار مجدلاوى، ٢٠٠٦.

- د.ر. فوبليكوف، تاريخ الأقطار العربية المعاصر، م١، موسكو، دار التقدم، ١٩٧٥، ص٢٢٣.

- نظام عزت العباسى، السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية،إربد، دار هشام للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ١١١- ١١٥.

(٣١) خلة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٧.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٥٤٨- ٥٤٩.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٥٥٠- ٥٥١.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٨- ٥٧٩.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٥٧٩- ٥٨٠.

الفصل الثالث

مصادر الإلهام الفكري
لعز الدين القسام

هشام محمد عبد الرؤوف

هذه سيرة رجل، استُشهد فى بداية المعركة، وهو قائدها، احتفظ أخوه بجواربه بعد استشهاده، ولا تزال تنبعث منها رائحة زكية.

كان أبًا روحيًّا للعمل العسكرى فى مواجهة المحتل الغربى، فقد حارب جميع صور الاحتلال فى العالم العربى فى عصره، (الفرنسى فى سوريا، والإيطالى فى ليبيا، والبريطانى والصهيونى فى فلسطين).

يُعد بداية مقاتَلة المحتل بصورة تنظيمية وعسكرية فى الأراضى الفلسطينية، وقت أن ساد انتهاج الحركة الوطنية الفلسطينية عملًا سياسيًّا، مترجمًا فى كتاباتٍ، وإخراج بياناتٍ، واعتراضاتٍ شفهيةٍ، ومؤتمراتٍ، ومذكِراتٍ، فى مواجهة الاحتلال البريطانى والصهيونى.

فكان من الضرورى معرفة مصادر إلهامه، وتكوين أفكاره، وأساس مشروعه، والوسائل التى استخدمها ليخرج مشروعه إلى أرض الواقع، فيستمر حتى وقتنا الحاضر، ويكون هو مصدر عزة للعرب أجمع.

تعالج هذه الدراسة تأثر الشيخ عز الدين القسام، بكل من جمال الدين الأفغانى،

وعبد الرحمن الكواكبى، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، على ما بين مصادر الإلهام هذه من تباينات وتعارضات.

محطات حياته

ولد عز الدين عام ١٨٨٢، فكان الابن الثانى لرجل الدين السورى، الشيخ عبد القادر القسام، المشتغل بالتصوف، وعلوم الشريعة، والمهتم بنشر العلم، وبثه، وتربية المريدين، وهدايتهم إلى الله (عزّ وجلّ)، وكانت له مدرسة (كُتَّاب)، درَّس فيها أبناء القرية (الأطفال)، أصول القراءة، وحفظ القرآن، واشتغل لفترة مستنطقًا فى المحكمة الشرعية[١]. أما والدة الفتى عز الدين فهى حليمة قصَّاب (الزوجة الثانية)، سليلة آل نور الله الكرام، حَمَلة العِلم الدينى، فى بلاد الشام[٢].

هذه البيئة، الريفية، البسيطة، ساعدت ذلك الطفل على تشرب مفاهيم، وقيم عائلته الإسلامية، وأن ينشأ بميلٍ خاص نحو الشريعة، والفقه الإسلامى، ويحمل من سمو الخُلق، ما يجعل سيرته محمودة عند الجميع، وكان لأستاذه فى الكُتَّاب - الشيخ محمود - رأى وإعجاب بنبوغ وتفوق عز الدين على أقرانه، وكان الأستاذ غالبًا ما يذكر مزايا تلميذه النجيب[٣].

هيأ تفوق عز الدين فى مدرسته الأولى، واهتمام أسرته بالتعليم الشرعى، فرصةً للسفر إلى الأزهر وطلب العلم هناك، وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وتم تدبير أمر السفر بمساعدة أحد الأفندية، فسافر عز الدين، وابن خالته ناجى أديب عام ١٨٩٦، وبرفقتهما أخوه فخر الدين[٤].

كانت مصر، آنذاك، مصب التيارات الفكرية المتعددة داخل الشرق الإسلامى، فعلى ساحتها نشر عبد الرحمن الكواكبي(*) كتابيه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى»، وكان هناك

* عبد الرحمن بن أحمد الكواكبى، ولد عام ١٨٥٤ فى حلب، هاجر إلى مصر سنة ١٨٩٩، سرًّا، مخافة بطش السلطان العثمانى. نشر فصول كتابه «طبائع الاستبداد» فى صحيفة «المؤيد» دون توقيع، ثم نشر كتابيه «طبائع الاستبداد»، و«أم القرى» بعد تعديلات جوهرية باسم «الرحالة ك»، ويمثل «أم القرى» محاضر اجتماع جمعية تعليم الموحدين السرية، بمندوبين عن الدول التى بها مسلمين، وكان الاجتماع فى مكة، لمناقشة مشكلات الأمة، وكيفية علاجها.
طاف الكواكبى بالعديد من بلاد المشرق فى آسيا وأفريقيا والدول الإسلامية، مات فى ١٤/ ٦/ ١٩٠٢، بينما كان يعزم على القيام برحلة مماثلة إلى بلاد المغرب، وصادر رجال السلطان عبد الحميد أوراقة الخاصة.
وكتب حافظ إبراهيم على قبره:

هنا رجل الدين هنا مهبط التقى ... هنا خير مظلوم هنا خير كاتبِ
قفوا واقـرأوا أم القرى وسلّموا ... عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

صراع فكرى محتدم بين مدرسة الإسلاميين «امتداد الأمة وأصالتها»، ممثلة فى تلاميذ الصوت الثائر جمال الدين الأفغاني(*)، كمحمد عبده(**)، ورشيد رضا، وبين مدرسة التغريب، من أمثالها فرح أنطون، ولطفى السيد.

كانت مصر خاضعة للاحتلال البريطانى، بعد فشل ثورة عرابى، عام ١٨٨٢ م، التى قادها تلامذة الأفغانى، ومحمد عبده. نشأ فى مصر آنذاك تيار المقاومة للاحتلال البريطانى، ممثلًا بمصطفى كامل، أحد الأصوات الثورية فى تاريخ مصر، ومن المتأثرين بصرخات باعث النهضة الإسلامية الحديثة، جمال الدين الأفغانى.

فعَرف عز الدين فى مصر، الاستعمار الغربى البريطانى، وجهًا لوجه، ورأى فيها هجوم المفكرين المتغربين على الإسلام، فكرًا، وحضارةً، وتاريخًا. فعايش بنفسه الصراع الدائر بين هؤلاء، وبين المفكرين الإسلاميين، فعرف المشروع الحضارى الإسلامى، وارتبط فهمه للإسلام، بأنه دين علم وعمل. وفيها عرف القسام عن الحركة الصهيونية، وليدة الاستعمار الغربى، وربيبته، وسمع عن تطلعاتها وأطماعها بفلسطين.

حصل عز الدين على الشهادة الأهلية من الأزهر، بعد دراسة دامت حوالى سبع سنوات،عانى فيها من ضيق العيش، لانقطاع الأموال التى كانت ترسل إليه، وعاد إلى موطنه، عام ١٩٠٣ م. ورفض وقتها بعزة رجل الأزهر المستنير، تنفيذ طلب والده بالذهاب إلى الأفندى ليسلما عليه، ثم قام عز الدين برحلةٍ إلى تركيا للاطلاع على طرق التدريس فى جوامعها، وعلى خطب الجمعة، ودروس ما بعد صلاتى العصر والمغرب(٥).

(*) محمد جمال الدين بن صعتير بن على بن مير رضى الدين محمد الحسينى، ولد ١٨٣٨ م، فى أسعد أباد فى خطة كنر من أعمال كابل ببلاد الأفغان.

سافر فى العاشرة من عمره إلى إيران، ومنها إلى النجف، ثم عاد فى ١٨٥٤ م، ثم سافر إلى الهند، ثم إلى مكة، وحتى عام ١٨٦٨ م بدأ فى الترحال من جديد، ولكن لإيقاظ الأمة، ومحاربة الاستعمار الأوروبى، فسافر إلى الهند ثم إلى مصر، فالآستانة، فالحجاز، فالعراق، فإيران، فروسيا، فلندن، وباريس.

عاش فى مصر فى الفترة من ١٨٧١ م حتى ١٨٧٩ م، وكانت أخصب الفترات فى إنجازاته الفكرية، اجتمع هو وتلميذه محمد عبده فى المنفى، وأصدرا مجلة «العروة الوثقى»، كما كان رئيس «تنظيم العروة الوثقى» السرى.

(**) محمد عبده حسن خيرالله، ولد ١٨٤٩ م، بقرية محلة نصر، مركز شبراخيت محافظة البحيرة مصر. تعلم القراءة، والكتابة، وحفظ القرآن، وتعلم بمعهد «الأحمدي» الأزهرى بطنطا ١٨٦٢م. عاد إلى بلدته ليشتغل بالفلاحة بعد زواجه، ولكن والده أصر على عودته لطلب العلم، فهرب إلى أخوال أبيه، وهناك لقيه الشيخ درويش خضر، فتأثر بهذا الشيخ، وغادر إلى طنطا ثم إلى القاهرة لطلب العلم.

تعرف إلى الأفغانى عام ١٨٧٠ م ،وتتلمذ على يديه ولازم حلقاته، حتى أصبح أصدق أصدقائه، ونهج نهج الأفغانى، حتى عاد من المنفى.

كرس جهوده للعمل الفكرى دفاعًا عن الإسلام، ففسر القرآن، ونشر كتبًا، ورسائل. ركز على الميدان العلمى، والتربوى، فى الإصلاح. وكان يرى بعدم ضرورة الصدام مع الحكام والمستعمرين، لحين تربية المجتمع على المطالبة بحقوقه.

بدأ فى العمل بما تعلم، حين عاد، وعكف على التدريس فى زاوية والده، وفى جامع السلطان إبراهيم بن أدهم، وأخذ دور والده فى تدريس أطفال القرية، وتجاوَزَ الحدود التقليدية فى حفظ القرآن وتجويده إلى العلوم الأولية، والقراءة، والكتابة، وتولى خطابة الجمعة فى مسجد المنصورى. ومع أول راتب حصل عليه منع أمه وأخواته عن العمل فى منزل الأفندى مكتفيًا براتبه المتواضع(٦). وبنشاطه فى الدعوة والتعليم، ذاع صيته، وانتشر اسمه. وكانت سيرته الشخصية مثال الفضيلة والكمال، لا ينهى عن خلق ويأتى مثله، ولا يدعو إلى طريق إلا ويكون أول سالك له، فكَثُر أتباعه، ومريدوه، وعَظُم شأنه. حتى إن الأفندية فى المنطقة حاولوا الضغط عليه، للتخفيف من نفوذه الشعبى، وتأثيره على الناس، فحاولوا استعداء السلطات العثمانية عليه، وإن لم ينجحوا فى ذلك.

فى ٣٠ / ٩ / ١٩١١ عندما حاصر الأسطول الإيطالى مدينة طرابلس، بهدف احتلال ليبيا، وبعد أن ردت حكومة الاتحاد والترقى - التى تقلدت الحكم فى إستانبول بانقلاب (١٩٠٨م) - بأنها لا تضمر أى عداء إزاء المشاريع الإيطالية فى طرابلس الغرب، وبرقة، كرد على الإنذار الإيطالى لها، الذى جاء فيه: «إن إيطاليا قررت إسباغ نِعم التقدم الأوروبى على طرابلس الغرب». عندها قاد الشيخ عز الدين القسام بنفسه، مظاهرة، طافت شوارع البلدة (جبلة)، وهى تهتف: «يا رحيم ويا رحمن..غرق أسطول الطليان». ولم يكتفِ بذلك، فدعا إلى الجهاد، وجمع أموالًا، وتبعه مائتان وخمسون متطوعًا، إلى الإسكندرونة، لكن السلطات العثمانية أرجعتهم، بعد أن رضخت للطليان. فبنى الشيخ، بما جمعه من مال، مدرسة، لمحو الأمية فى بلدته(٧).

مع إعلان جمال باشا المرسينى «الصغير»، قائد الجيش العثمانى الرابع، انسحاب الدولة العثمانية، جيشًا وحكومة من سوريا فى ٢٧ أيلول / سبتمبر ١٩١٨. ومع دخول جيوش الحلفاء دمشق فى مطلع تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨، يتقدمها مقاتلون عرب، تابعون لقيادة الأمير فيصل بن الحسين، كان القسام قد وثَّق صِلاته بمشايخ الجبل، وكل الوطنيين فى الساحل السورى وفى الداخل، وقبل سقوط الساحل السورى بيد القوات الفرنسية، فى تشرين الأول / أكتوبر١٩١٨، باع الشيخ القسام ورفاقُه بيوتهم، وكل ما يملكون. ثم انتقلوا إلى قرية «الحفَّة»، مع زوجاتهم، وأولادهم، وفيها أخذ الشيخ يعطى الدروس التحريضية، تمهيدًا لمساندة الثورة، مستفيدًا من الموقع الحصين للقرية، وطابعها الفلاحى. وعندما

بدأت أعمال الثورة، فى أرجاء اللاذقية، كان القسام أول من لبى، فانضم إلى عصابة «عمر البيطار»، فى قرية شير القاق، من جبال صهيون، وانتظم فى عداد رجالها، وتقلد السلاح جنديًا، وكانت معه طائفة من مريديه، وأتباعه، الذين علّمهم وهذّبهم، وبقى الشيخ عز الدين فى دمشق، إلى أن سقطت الحكومة الفيصلية(*)(٨).

بعد انتصار الفرنسيين فى معركة ميسلون، فى ٢٤ / ٧ / ١٩٢٠، غادر عز الدين دمشق، هو ورفاقه، إلى بيروت، مفلتين من الحكم بالإعدام، ومنها إلى صيدا، وقصد فلسطين (حيفا)، ليبدأ فى تأسيس حركته الجهادية، ضد البريطانيين، واليهود، المحتلين للأراضى الفلسطينية.

عمل الشيخ عز الدين، إمامًا وخطيبًا لمسجد الاستقلال، ومدرِّسًا فى مدرسة البنات الإسلامية، ومدرسة البرج للبنين الإسلامية، وعضوًا فى جمعية الشبان المسلمين فرع حيفا ثم رئيسًا لها، ومأذونًا شرعيًا، لقرى شمال فلسطين.

أخذ شيخنا يبنى مشروعه الثورى خلال الفترة من ١٩٢٥م حتى ١٩٣٥م، والهادف إلى طرد الاحتلال البريطانى، من البلاد، فكان يقول «إن بريطانيا هى رأس الأفعى، واليهود الذنب ، اقطعوا رأس الأفعى فيموت الذنب». وأيضًا عمل على منع إقامة الدولة الصهيونية، على هذه الأراضى، فكان دائمًا يقول للمصلين فى مسجد الاستقلال : «إنها تحتل البلاد

(*) رفض السوريون الانتداب الفرنسى، ونشطت حكومة فيصل سياسيًا للحيلولة دون وقوعه. فاجتمع المؤتمر السورى ثانية فى ٦/ ٣/ ١٩٢٠ وبايع فيصل ملكا على سوريا، وأعلن استقلالها، وأدخل فلسطين فى الوحدة السورية، كما أنه بحث مسألة استقلال العراق. فكان لهذا القرار رد فعل سيئ لدى بريطانيا وفرنسا، فعقدتا مؤتمرًا فى سان ريمو بتاريخ ٢٤/ ٤/ ١٩٢٠ اتفقتا فيه على تقسيم البلاد العربية فيما بينهما، وجعل الانتداب واقعا كما اتفقتا فى السابق.
وبعد إعلان قرارات المؤتمر، بدأ الشعب السورى بالاستعداد للتصدى للجيوش الفرنسية، التى تريد فرض الانتداب بالقوة، وكانت مساومات فيصل وتراجعه أمام الجنرال غورو الذى وجه إليه إنذارًا فى ٤١ تموز/ يوليو بضرورة قبول الانتداب، وبوقف إمداد العصابات الثورية فى المنطقة الغربية، فوافق فيصل على الإنذاروأخذ بمبدأ التفاهم مع فرنسا على أساس «خذ وطالب»، ولكن الشعب السورى رفض موافقة فيصل على الإنذار، وخرج مناديًا بسقوط حكمه، فاضطر أمام الضغط الشعبى إلى الرضوخ لإرادة القتال، فأعلن الجهاد المقدس ضد الفرنسيين .وفى ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠التحم الجيشان السورى بقيادة وزير الحربية يوسف العظمة، والجيش الفرنسى فى معركة ميسلون، وكانت النتيجة احتلال فرنسا للمنطقة الشرقية، ودخولها دمشق، معلنة سقوط الحكومة العربية المستقلة. وأبلغ فيصل بضرورة مغادرته البلاد الساعة الخامسة من صباح ٢٨ تموز ١٩٢٠. أما الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية فقد توجه نحو قبر صلاح الدين بصورة تهكم، وبيده سيفه ليقول أمام الضريح: «يا صلاح الدين، أنت قلت لنا إبان حروبك إنكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا إليه... وها نحن قد عدنا فانهض لترانا هاهنا».

وأنتم فيها»، ويدعوهم إلى استقبال اليهود «كعدو لا كمهاجر أوكضيف»[٩]. كان يقول أيضًا، «لا تبيعوا اليهود ولو شبرًا واحدًا من الأرض، ومهما أثقلوا الثمن. إنّ من يبيعهم أو يقطعهم أرضًا يقطعه الله قطعةً من نار جهنّم، فيها يتلظّى»[١٠]. ولقد كان الاتفاق (العقد أو البَيْعَة) بينه وبين تنظيمه السرى العسكرى، على «نُصرة الدين والوطن وقتل الإنجليز واليهود»[١١]. وكان يعمل على تحقيق الهدف من خلال مجالين: أولهما العمل العام للتثقيف والتهيئة، ونشر روح الثورة، (من خلال عمله كمدرس فى مدرسة الإناث الإسلامية، ثم فى مدرسة البرج للبنين الإسلامية، والمدرسة الليلية لمحو الأمية، ومن خلاله عمل خطيبًا، ومدرسًا، بجامع الاستقلال، ومن خلال جمعية الشبان المسلمين، التى أصبح رئيسًا لفرعها فى حيفا، ومن خلال عمله مأذونًا شرعيًا، بمحكمة حيفا الشرعية). أما الآخر، فهوالعمل العسكرى، والبناء التنظيمى السرى، فأخذ القسام يبنى، ويُعِد تنظيمه بلجانه، وخلاياه، وشارك هذا التنظيم، فى هبّة البراق صيف ١٩٢٩م، ثم بدأت الخلايا بمهاجمة العدو الصهيونى، بقتل أفراد منه، مثل (يوسف بورنستيان، شاموئيل جوترمان...)، ومهاجمة مستعمراته، مثل (كفار يجزكئيل، عتليت، نحلال...)، حتى استشهد شيخنا المجاهد فى معركة يَعْبدُ، التى كان يرى بأنها بدء الثورة، بقوله: «نحن خارجون لإعلان الثورة»[١٢].

مشروعه

لعز الدين القسام مشروع عقلانى، ثورى، إسلامى، أممى، تبنى نظرية «الجامعة الإسلامية». واعتمد على المبادرة الشخصية.

فهو صاحب مبادرة فى كل حياته، بدت لنا منذ استقلاله عن والده، وسفره للدراسة فى الأزهر. فبإيجابية لا يعتريها تواكل، وبإيمانٍ بأنه سيقف ليُحاسب، ويُسأل عن دوره أمام ربه فردًا، كان صاحب الخطوة الأولى دائمًا، معتمدًا على ملكاته. فكان خير نتاج لبيت ذى طابع إسلامى. بداية منذ كان طالبًا فى الأزهر، وانقطع المال، وضاق العيش، وبدأ بعمل الهريسة، وبيعها بجانب دراسته[١٣].

فلما كان واجبًا عليه ألا يلجأ إلى سلطة تأسِره بمنحه شيئًا من التعظيم، كما تعلّم من كلمات عبد الرحمن الكواكبى: «إنه إذا نبغ من العلماء البعض، ونالوا حرمة بين العوام، لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم فى تأييد أمره، ومجاراة هواه فى مقابل أنه يضحك عليهم

بشيء من التعظيم، ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد»[١٤]، مخالفًا وصايا أستاذه محمد عبده، الذى كان يرى بمهاودة السلطات والمستعمِر، منعًا للتضييق، ومدعاة للحرية والانتشار. فرفض القسام مرافقة أبيه إلى الأفندى ليسلما عليه. وفورعمله فى مسجد المنصورى، ومع أول راتب حصل عليه، طلب من والده وقتها إجراء بعض التعديلات فى شكل البيت، ومنع أمه وأخواته -كما سبق وبيَّنا- من العمل فى بيت الأفندى، مكتفيًا بدخله الشهرى فى الإنفاق على أهله[١٥]. وبعد فشل ثورة سوريا أبى أن يتولى القضاء كمنحة من المحتل، وفضَّل أن يكون مفلتًا من حكم الإعدام إلى حيفا[١٦].

حين عاد من دراسته إلى سوريا، كان مستحضرًا قول عبد الرحمن الكواكبى: «فإذا وُجد فى الأمة الميتة من تدفعة شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها....».[١٧] وكان يرى أنه يجب أن يكون هو هذا الشهم الذى يكون أول خطوة فى التخلص من الاستبداد. فلما علم بأحداث الأسطول الإيطالى فى ميناء طرابلس، بادر وقاد مظاهرته، وجمع المال، ودعا إلى الجهاد، وقاد كتيبة من مائتين وخمسين متطوعًا، إلى أرض المعركة، ولكن السلطات العثمانية أرجعته من الأسكندرونة[١٨].

لجأ إلى حيفا، مفلتًا من حكم الإعدام فى سوريا، وأثبت ذاته كمدرس، ثم جعل من مسجد الاستقلال أكثر المساجد شهرة فى تلك المنطقة، وساهم فى تأسيس «جمعية الشبان المسلمين»، حتى أصبح رئيس فرعها فى حيفا، وعمل على تعيينه مأذون حيفا الشرعى.

وعن ثوريته فالقسام رجل ثورى، انصب تفكيره على القيام بالثورة، وبالتحضير لها، من إعداد وتهيئة، فما نزل أرضًا بها استبداد حتى ثار عليه، كأنه عبد الرحمن الكواكبى، فى قوله: «إن الحقوق لا تُعطى منَّة من حاكم مستبد، أو مستعمر، وإنما تنال بالإعداد والتحضير لمواجهة أعداء الله، وأعداء الإنسان»[١٨]. ولكن بعد تهيئة الجمهور المساند لثورته، كما كان يفعل الأفغانى بقوله:«أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق، وتقوم بأود العيال، فلماذا لا تشق قلب ظالمك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة تعبك؟!»[١٩]، والأفغانى الذى قال أيضًا : «لهذا لا تتمكن [إنجلترا] بدسائسها فى قطر إلا عند سكون أهلها، فإن مقاومة الأهالى أشد بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين، تنهزم بانهزامهم...»[٢٠].

كان عز الدين يهتم بتكوين أعضاء تنظيمه، الذين سيعاونونه فى ثورته، حتى إذا أُلهم

لحظتها، قاد هؤلاء الأعضاء للقيام بثورته، ليساندها ذلك الجمهور المهيأ . فلم يكن عز الدين إصلاحيًا، يثقِّف الجمهور، ويربيه، ويصلح من أمره، ووعيه، حتى يطالب ذلك الجمهور بمصالحه التى عرفها، كما كان يرى أستاذ القسام محمد عبده.

لما شرع الطليان فى احتلال ليبيا (طرابلس)، قاد عز الدين الجمهور فى مظاهرة اعتراض على ذلك معارضًا موقف حكومته العثمانية، وقاد أتباعة (مائتين وخمسين متطوعًا) فى كتيبة للدفاع عن هذه البقعة. ومع بدء ظهور نوايا احتلال سوريا من قبل القوات الفرنسية (١٩١٨)، قاد القسام أتباعه للجبال، وانضموا إلى كتائب الثورة، للدفاع عن التراب الوطنى السورى. أما فى فلسطين، فأخذ القسام بأسباب قيادة ثورة، حتى إذا تهيأت الأجواء، قاد الأعمال العسكرية لقيامها، وحين التقط لحظة الثورة دعا كتيبته للخروج وإعلان الثورة، فكان عاملًا بقول جمال الدين الأفغانى: «لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو، بثمن بخس، أو غير بخس، (كل ثمن تباع به البلاد فهو بخس)، بل خائن الوطن من يكون سببًا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن، بل من يدع قدمًا لعدو تستقر على تراب الوطن، وهو قادر على زلزلتها»[٢١]،

رأى القسام أن إسلامية مشروعه – الذى يحمل مفهوم «الجامعة الإسلامية» – هو أساس النجاح؛ فتربيته، ونشأته، ومجال تعليمه، هى العوامل الأساسية فى هذا الاعتقاد، فنجده يعلِّم الأطفال بالمساجد القراءة، وتحفيظ القرآن، بل كان يزيد بعض المواد الأساسية الإسلامية، وكان يعلِّم الناس تعاليم الإسلام، فى دروس وخطب المساجد، ولطالما استخدم الأسلوب الإسلامى فى حث الناس على الثورة، تحت مسمى «الجهاد». وفى ذلك يقول القسامى إبراهيم الخليل(أبو إبراهيم الصغير)، مشيرًا إلى جوهر دعوة عز الدين القسام :«إن القائد الشهيد كان يدعو إلى الجهاد، على أساس دينى، والجهاد فى سبيل الله، واستخلاص الوطن، ودفع الظلم عن المواطنين»[٢٢]. فكان القسام بذلك تلميذًا مقلدًا لأستاذه محمد عبده الذى قال :«أى إصلاح للشرق والشرقيين لا بد أن يستند إلى الدين، حتى يكون سهل القبول، شديد الرسوخ، عميق الجذور فى نفوس الناس»[٢٣]، وعبده الذى كان محررًا تحت رئاسة جمال الدين الأفغانى لمجلة «العروة الوثقى»، التى كُتب فيها عن العلاج لأوضاع الأمة : «فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه، على ما كان فى بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية، بتطهير القلوب، وتهذيب الأخلاق، وإيقاظ نيران الغيرة...»[٢٤].

كما كان شيخنا حريصًا على هداية العصاة، ويرى بأنهم أولى من غيرهم، وكان يعتقد بأن إصلاح المستهترين أولى من إصلاح غيرهم، ويمكن للأمة أن تستفيد منهم، بعد الإصلاح، فقال فى الحرامية: «دعهم يعملوا، لأن فى عملهم رجولة، سنحوِّلها، فى يوم من الأيام، إلى جهاد»[٢٥]! فكان يذهب إلى العربيد، والزانى، والمنحل، ويخاطبهم بأسلوب رقيق، لينقلهم من معسكر الضلال إلى معسكرالثورة، فنجد أربعة من أعضاء تنظيمه ممن كانت سوابقه الأخلاقية مُشينة – ثلاثة منهم تابوا على يد الشيخ عز الدين القسام ـ فأحمد الطيب أبو منصور أحدهم، وكذلك عطية أحمد المصرى [٢٦]، والمجاهد حسن الباير، الذى أفاد، عندما وقع فى أيدى البوليس، إثر معركة يَعْبُد، فقال: «أنا من قرية بلقيس، وكنت أسرق، وأرتكب المحرمات، فجاءنى المرحوم عز الدين القسام، وأخذ يهدينى، ويعلِّمنى الصلاة، وينهانى عن مخالفة الشرع الشريف، وأوامرالله تعالى...»[٢٧].

قام مشروعه الإسلامى على فكرة «الجامعة الإسلامية»، التى لا تتعارض مع الوطنية، أو القومية، فلم تقتصر خطب القسام على التحذير من الخطر البريطانى، والصهيونى، فى فلسطين، بل لطالما تطرق إلى أطماع المستعمرين الغربيين، فى باقى أجزاء الوطن الإسلامى، فالانتداب الفرنسى فى سوريا، ولبنان، والبريطانى فى العراق، وفلسطين، والأردن، والنفوذ البريطانى القوى فى مصر، والسودان[٢٨]. وكان شخصيًّا يغرس فى قلوب سامعيه حب الوطن[٢٩]؛ متأثرًا فى ذلك بأستاذه جمال الدين الأفغانى، الذى لم ترتبط ثوريته بوطن من الأوطان التى تنقل بها، بل كان يدعو إلى مصالح شعوب كل هذه البلاد، كأنها أهل وطنه، وعشيرته، ومع ذلك كان يجعل من الوطنية دائرة تسبق دائرة العقيدة الروحية[٣٠]، والأفغانى هو من قال: «لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم»[٣١]! ومحمد عبده، الذى كان من مبادئ دعوته: «إن ما يمثله الإسلام، كرابطة اعتقادية وأدبية وروحية، تجمع كل المسلمين، بل والجنسية لجميع من يتدين به، لا تمنع تأسيس الولايات السياسية على أسس قومية ووطنية، فى إطار هذا المحيط الإسلامى الكبير»[٣٢].

كان القسام عقلانيًّا مثل أستاذة، محمد عبده، فكان عز الدين يتعامل مع فصائل مجتمعه، سواء كانوا حزبًا أو فردًا، رجلًا أو امرأة، مسلمًا أو غير مسلم. وبرز ذلك فى موقفة من المرأة، التى كان لها أنشطة موازية للجان تنظيمه السرى، حتى إن هناك خمسة عشر راويًا وراوية أكدوا وجود تنظيم نسائى للقسام «رفيقات القسام»[٣٣]. معتبرًا بأستاذه محمد عبده، الذى كان يحارب تهميش المرأة، وهى أساس بناء الأسر المسلمة، والذى (عبده) ساهم فى إخراج

كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين، بل قال البعض بأن عبده هو الذى ألفه[٣٤]، فكان عز الدين يوظف المرأة فى التحريض، متأثرًا بالكواكبى، الذى رأى أن المرأه قادرة على أن تسوق الرجل، وتجعله يظن أنه هو الذى يسوقها [٣٥]! وكان عز الدين يوظفها فى الإعداد للثورة، بغرض إصلاحها (بشغلها عن مساوئ سلوكيات من لا يشغلهم شيء)، وتفهمها طبيعة المعركة، ودور الرجال من حولها، وكأنه معتقد بما كتبه عبد الرحمن الكواكبى «بأن تركها جاهلة يسبب انحلالها، فانحلال زوجها، وأبنائها»[٣٦]! ولذا كان للمرأة فى تنظيم القسام دور فى (التموين -التحريض والدعاية - نقل الأخباروالرسائل - إخفاء الثواروتهريبهم - تمويه ومراقبة الطرق - ضرب الحجارة - تقديم الإسعافات الأولية - تأسيس الاتحادات والجمعيات - المشاركة فى المؤتمرات السياسية - حمل السلاح).

وسائل تنفيذ مشروعه

كان عز الدين القسام يعمل على تنفيذ مشروعه على مرحلتين، يبدأ بمرحلة تهيئة الرأى العام لوجوب الثورة، وبناء التنظيم، ثم مرحلة العمل العسكرى، وتعبئة الجمهور، وتوظيفه لتنفيذ الثورة. واتخاذ ما كان متاحًا من وسائل آنذاك، لتحقيق هدفه.

تهيئة وتعبئة الجمهور وبث روح الثورة

عمل شيخنا على تثقيف الجماهير، بالثقافة الإسلامية اللازمة، ليحيا هذا الجمهور بها، من (فقه، أخلاق ...). روى المجاهد القسامى أبو إبراهيم الكبير أنه «كان للشيخ القسام حلقات درس، يعلِّم فيها المسائل الدينية»[٣٧]! فهذا الأسلوب الذى ورثه عن والده، وشرع فى خلافته فى سوريا. حتى إنه خاض معركة صحفية، عام ١٩٢٥م، حول نقطة فرعية فى الدين(ارتفاع الأصوات فى الجنائز)، ولكنها تتعلق بربط حياة هذا الجمهوربتعاليم الإسلام، أسفر عنها خروج كتاب «النقد والبيان فى أوهام حزيران» للقسام وصهره الشيخ كامل القصَّاب.

كان دستوره فى تهيئة الجمهور، ما كتب فى مجلة «العروة الوثقى»، بيدى أستاذيه، الأفغانى، وعبده، «فعلاجها [الأمة] الناجح إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه، على ما كان فى بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية، بتطهير القلوب، وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الغيرة...»[٣٨].

منذ وصول شيخنا حيفا ١٩٢١ وحتى ١٩٢٨، كان يوظف كل منبر يعتليه، وكل حوار يشارك فيه، وكل مكان ينزل فيه، ليعرِّف الجمهور بدينهم، وبوجوب الجهاد، وبحقيقة الخطر البريطاني والصهيوني. فكان ينظر شيخنا إلى الجمهور نظرة الكواكبي، الذى قال: «هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا»[٣٩]! ولا ينسى القسام كلمات الأفغاني: «ولن تنبعث شرارة الإصلاح، فى وسط الظلام الحالك، إلا إذا تعلم الشعب، وعرف حقوقه، ودافع عنها، ومتى عرف الشعب هذه الحقوق، وجد نفسه مضطرًا إلى المطالبة بها، والمحافظة عليها إذا نالها»[٤٠].

فأول ما نزل الشيخ المجاهد حيفا، سكن فى أحراشها، حيث يتجمع الفقراء الفلاحون، النازحون، وأنشأ مدرسة ليلية، وأبدى اهتمامًا بالغًا بتحسين أحوال معيشة أولئك المعدمين، وأخذ يواجه الأميه المتفشية هناك، من خلال الدروس الليلية[٤١]. تمامًا كما انتهج مصطفى كامل – وتياره، «الحزب الوطني» فى مصر– إقامة مدارس، كى تقدم نموذج الوطنى المصرى المثقف، الذى تجعل منه الثقافة صاحب موقف ثورى فى مناهضة الاحتلال[٤٢]. وهذا ما فعله القسام فى الماضى فى سوريا، عندما عاد هو وأتباعه، بما جمعوا من تبرعات لمساعدة إخوانهم فى ليبيا.

لما درَّس القسام بمدرسة الإناث الإسلامية، ومدرسة البرج للبنين الإسلامية، ربط النشاط المدرسى بسيرة الأبطال المسلمين، أمثال صلاح الدين الأيوبى. يقول إبراهيم السهلى – (أحد تلامذة مدرسة البرج) إن الأستاذ عز الدين القسام، «فى نهاية كل سنة يمثل للأطفال رواية، كقصة صلاح الدين الأيوبي»[٤٣].

فى المساجد، كان يُعلِّم الجمهور دينهم، وينشر روح الجهاد، ووجوب الثورة على المستعمر، فكان يذكِّر فى خطبه بالحديث الشريف: «إذا ديس شبر من أرض المسلمين، فعلى المرأة أن تخرج بغير إذن زوجها، وعلى الرجل أن يخرج بغير إذن أبيه»[٤٤].

كان مرجعه فى ضرورة تهيئة عموم مجتمعه، وتوعيتهم، إلى كل من: عبد الرحمن الكواكبى، الذى كتب فى كتابه «أم القرى» أن من أسباب الفتور الموجود هو غرارة المسلمين أى «عدم معرفتهم كيف يحصل انتظام المعيشة، لأنه ليس فيهم من يرشدهم من ذلك»[٤٥]، فذكر الكواكبى فى القضية ٤٨ قوة الجمعية (جمعية تعليم الموحدين)، «سلاحها العلم والتعلم، وجيشها الأحداث والضعفاء»[٤٦]. كذا الأفغانى الذى قال «إن مقاومة الأهالى أشد

بأضعاف مضاعفة من القوى العسكرية المجتمعة فى أماكن مخصوصة تحت قيادة رؤساء معينين».

بناء التنظيم

بعد أن ذاع صيت الشيخ فى حيفا، والبلاد المجاورة، وأصبح مصدر ثقة، ومرجعية، فى شمال فلسطين. ورصد الواقع، ودرس أوضاع الجمهور، بدأ فى تنظيم طلائع حركته، بصورة سرية، فى ١٩٢٥(٤٧)، متأثرًا بخبرته التنظيمية، والعسكرية، فى ثورة جبل صهيون. فالسرية لأخذ الحذر من أبناء الثورة نفسها، كى لا تتكرر فعلة صبحى بركات فى سوريا، الذى ألقى السلاح أمام الجنرال الفرنسى، غورو فى بيروت، بعد أن كان قائد إحدى عصابات الثورة فى سوريا، إلا أنه عاد إلى حلب، داعيًا إلى سياسة الوفاق، والتفاهم، مع الفرنسيين المحتلين!

كان لأعضاء تنظيم القسام أسماء حركية، ولا تعلم خلية، شيئًا عن سواها(٤٨)، فهذا المجاهد أبو إبراهيم الكبير، الذى قال فى حوار له: «كان القسام يضمه إلى خلية تنظيمية دون أن يعرف بقية أعضاء وخلايا التنظيم الأخرى، بل ربما اعتقد العضو أن هذه الخلية هى الأولى التى بدأ بها القسام العمل التنظيمي». وبرز تأثرالقسام بأستاذه جمال الدين الأفغانى، الذى كان له السبق فى إنشاء تنظيم سرى عام ١٨٨٣ جمعية العروة الوثقى(٤٩) – الذى كان محمد عبده نائبه بعد ذلك، ليعد بتكوين هذا التنظيم من أوائل من أنشؤوا تنظيمًا سريًّا على مستوى العالم، فقد سبق تنظيمه، «الجمعية الفابية»(*)، التى تكونت عام ١٨٨٤، و«حزب العمال المستقل»، الذى تكون فى عام ١٨٩٣، وظهرت محاكاة عز الدين القسام لهذا التنظيم، فى شكله الهرمى، ووجود مستويات إدارية، وفى سريته، ، وتقسيمه إلى لجان، مع الاهتمام باللجنة المالية، وفى أسلوبه التدريجى التوثيقى، فى تجنيد الأعضاء الجدد، بل فى أساليب الدعوة إلى أهداف وأفكار التنظيم.

أخذت مرحلة إعداد الكوادر، بالتثقيف، وإكساب الخبرات، والتوظيف، فى جلب العناصر الجديدة، وتوصيلها إلى القيادة (الشيخ) للتوثيق، وإقرار تجنيدها، وحتى عام ١٩٢٨. كان تنظيم عز الدين القسام يتكون من خلايا، كل خلية مكوَّنة من خمسة أفراد،

(*) سُمِّيَت نسبة إلى فابيوس كونكتاتورد، وهى جمعية إنجليزية، أنشئت فى عام ١٨٨٤، وسعى أعضاؤها إلى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية. أهم ثلاثة من كبار الفابيين هم: جورج برنارد شو، سيدنى ويب، وغراهام والاس.

ووصلوا إلى تسعة، يرأسهم نقيب، فى القيادة والتوجيه، والذى يلزم أعضاءه باقتناء سلاح، وبدفع اشتراك شهرى، لا يقل عن عشرة قروش[٥٠]. وبعد تكون هذا التنظيم، إداريًا، من القيادة المسؤولة، وقادة القواعد، والفروع، ثم القاعدة[٥١]. فحاكى تنظيم، «جمعية العروة الوثقى»، المكون من خلايا من ثلاثة أفراد، تنعقد اجتماعاتها بصورة دورية، ولها برنامج إعدادى تربوى تدريبي[٥٢]، وعلى كل فرد أن يدفع، عقب كل اجتماع، (بصورة دورية ثابتة) ما يستطيع من مال، ويحفظ مع أمين صندوق منتخب، وعلى أمين الصندوق أن يجرى عمليات ضبط الحساب[٥٣]. وكما فى تجنيد الأعضاء الجدد فى «جمعية العروة الوثقى»، نجد «عندما يقترح عضو من الأعضاء فى التنظيم، ترشيح اسم جديد، فإن القبول، أو الرفض، ومنح الثقة أو حجبها، عن المرشح الجديد، إنما هو حق المستوى التنظيمى، الذى يقود العمل»[٥٤]. و«تتم دعوة المرشح الجديد، بطرق غير مباشرة، لتتكشف خلالها استعداداته، وآراؤه، ثم تسير الأمور بتدرج، حتى المكاشفة»[٥٥]. فنجد الشيخ عز الدين (القيادة)، محور التوثيق، وإقرار تجنيد العضو الجديد، كان ينتقى أفراد تنظيمه، من خلال ملاحظته لتفاعل الجماهير فى أعماله العامة (المدارس – الخطب والدروس المسجدية)، ومن خلال علاقاته بهؤلاء الأفراد. فيُروى أنه «عندما كان يخطب على منبر جامع الاستقلال، كان يراقب المصلين، ويدعو من يتوسم فيهم الخير والاستعداد، لزيارته فى المنزل، وتتكرر الزيارات، حتى يقنعه القسام بالعمل لإنقاذ فلسطين، مما يهددها من خطر»[٥٦]. أو قيام أفراد قدامى فى التنظيم، بتجنيد أعضاء جدد، ولكن بعد متابعة الشيخ عز الدين (القيادة)، شخصيًا، للجدد.

حتى واجبات الأعضاء فى تنظيم القسام، تضمنت مهام أعضاء «جمعية العروة الوثقى» نفسها، وزاد عليها، متطلبات العمل العسكرى، فكانت واجبات الأعضاء فى الجمعية، واجبات داخلية، تتعلق بتربية الأعضاء، وتطوير إمكاناتهم، وما يتعلق بنشر مبادئ الحرية، والوطنية بين الجماهير[٥٧]، فيما انحصرت مهام أعضاء تنظيم القسام الداخلية فى تربية الكو ادر (النقيب). ومهام أخرى خاصة بالأعضاء– من خلال اللجان، فكان الشيخ يقسم تنظيمه من الناحية التنفيذية إلى لجان، مثل لجنة شراء السلاح، ولجنة التدريب العسكرى له ولأعضاء التنظيم بإشراف الشيخ جلادات، وهو ضابط سابق فى الجيش العثمانى[٥٨]، وأخرى لنشر الفكرة، والتعامل مع الغير، مثل لجنة الدعاية (فكان يقوم رجال الدين من أعضاء التنظيم بالدعاية ونشر روح الثورة)، ولجنة الاتصال السياسى، بالأحزاب، والجمعيات الأخر ى، وبها محمود المخزومى، للتنسيق، فهو الذى اتصل برأس الحركة الوطنية، آنذاك، الحاج

أمين الحسينى، شخصيًا، أومن خلال هذه اللجنة، وهو الذى اتصل بالقنصلين الإيطالى، والتركى، فى القدس لشراء أسلحة[٥٩]، واهتم القسام بتنظيم الجانب المالى، فأنشأ لجنة لجمع المال (من خلال الاشتراكات، والتبرعات، ممن يثق الشيخ بهم، ومن الإنتاج الزراعى (الأرض) تبرع بها رجل للتنظيم فكان أعضاء التنظيم يزرعونها، وينفقون من ريعها على التنظيم[٦٠]، بالإضافة إلى لجنة الاستخبارات على العدو البريطانى والصهيونى، فتم بناء تنظيمم سرى من العمال، فى المصالح الحكومية، ودوائر البوليس، والعمال الذين يعملون مع اليهود، لمعرفة نشاط اليهود والبريطانيين[٦١].

العمل العسكرى وتعبئة وتفعيل الجماهير والتجهيز للثورة

كما أقام جمال الدين الأفغانى «الحزب الوطنى الحر»، عام ١٩٧٨[٦٢]، لنشر أفكار الحرية، والمطالب الوطنية، بين الجمهور، من خلال أعمال عامة، يتم من خلالها الاتصال المباشر بالجمهور، نسج القسام على منوال الأفغانى، فمنذ عام ١٩٢٩، وبعد أربع سنوات من بناء التنظيم، بدأ شيخنا فى تعبئة الجماهير، لتفجير الثورة، مستهدفًا تغطية أكبر مساحة جغرافية فى فلسطين، ونجد ذلك فى خطبه ودروسه، التى بدأت تأخذ منحى التحفيز للقيام بثورة، والتوبيخ، للسكوت على أوضاع فلسطين.

فنجد الشيخ يخطب، فى الشباب، تاليًا الآية الكريمة. «**يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتًا عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون، إن اللّه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص**»[٦٣] وكان يخطب، ذات مرة، فى آخر ١٩٣٤، فى الجمهور، قائلًا «هل أنتم مؤمنون؟ ثم أجاب: لا أعتقد، وسكت قليلًا»! فصارت ضجة، وهمهمة، فاسترسل وقال «لأنه لو كنتم مؤمنين، لكانت عندكم عزةَ المؤمن، فإذا خرجتم من هذا المسجد، وناداكم جندى بريطانى، فستهرولون نحوه »[٦٤]! وكان كلما فتح الحديث فى دروسه عن شخصية مجاهدة، من الصحابة توجه إلى اللّه بالدعاء، «ربنا ارزقنا الشهادة فى سبيلك »[٦٥]! ولم يقف عند التذكير، بل «كان يطالب الجمهور باقتناء سلاح».[٦٦]ولما وقف أحد المصلين، وسأل: «بماذا نقاوم العدو ونحن لا نملك شيئًا، أجاب الشيخ «بقتلهم وأخذ السلاح منهم»[٦٧]! وفى إحدى خطبه- كما نشرت صحيفة «الخليج» الإماراتية حوار حفيده أحمد- كان يخبئ سلاحًا تحت ثيابه، فرفعه، وقال. «من كان منكم يؤمن باللّه واليوم الآخر، فليقتن مثل هذا»، فأخذ مباشرة إلى السجن، وتظاهر الناس لإخراجه، وأضربوا إضرابًا عامًّا[٦٨]. وكان يقول

للناس فى خطبه: «هل أنتم مؤمنون؟» ويجيب عن نفسه «لا»، ثم يقول للناس «إن كنتم مؤمنين فلا يقعدنّ أحد منكم بلا سلاح وجهاد». و كان يركزّ على أن الإسراف فى زخرفة المساجد حرام، وأن علينا أن نشترى سلاحًا، بدل أن نشترى الثريات الفاخرة حتى إنه فى آخر خطبه وقف، للمرة الأخيرة، خطيبًا فى جامع الاستقلال بحيفا، وخطب فى جمع من المصلين، وفسر لهم الآية الكريمة: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة ١٣ - ١٤] «وكان فى صوته تهدج وحماسة، وفى نبراته رنين ألم ممض، وفى عينيه بريق من بأس وقوة» وأردف أيها الناس «لقد علمتكم أمور دينكم، حتى صار كل واحد منكم عالمًا بها، وعلَّمتكم أمور وطنكم، حتى وجب عليكم الجهاد، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فإلى الجهاد أيها المسلمون، إلى الجهاد أيها المسلمون»[٦٩].

حتى الحفلات العامة، حوَّلها إلى مدرسة فى الجهاد، فنظَّم الاحتفال بالمولد النبوى ذات مرة، وكان يشعر الناس بالخطر، ويشعل حماستهم، بقولة طارق بن زياد «البحر أمامكم والعدو وراءكم»، التى كانت شعار الحفل، فأحضر العامل البحرى (سرور برهم)، وجعله يحضر شختورته (مركبة الصغيرة)، فتركب لها عجلات بالزينة، وتصدر الموكب «طارق بن زياد»، وهو يطوف شوارع المدينة، من الصباح حتى العصر، وتمر السفينة أمام دائرة البوليس، وخلفها الآلاف، وعلى رأسهم عمال البحر، وعمال السكك الحديدية، وعمال البناء والحجارة[٧٠].

لطالما خرج شيخنا إلى القرى، لنشر فكرته، حتى أصبحت له شعبية معتبرة، فى قرى حيفا، وجنين، وقرى شفا عمرو، وصفورية، فى الجليل الأعنى، وكان يتردد على سيلة الظهر، وسيلة الحارثية، ونورس، وطوباس، وبرقين، ويعبد، وبرين، والرينة، ومنطقة العهبرية، حيث يوجد عرب المنسى، وأبى زريق، والسعديين، وزار عـرب الرمل، واللواء الشمالى، ومرج ابن عامر، وجنين[١٧]. ولم يكتف بذلك، بل طلب لعدة مرات! من الحاج أمين الحسينى، أن يعيِّنه واعظًا عامًّا، لتتاح له حرية التحرك فى مدن، وقرى فلسطين، وينشر فكرته، ولكن الحاج أمين كان يرفض ذلك[٧٢]. وساهم القسام فى إنشاء «جمعية الشبان المسلمين»، فى ١٩٢٧، التى تولى رئاستها بعد عام واحد، غدا ممثلًا عنها فى الاجتماعات الجماهيرية،

منذ عام ١٩٣٣، فكان مواظبًا على إعطاء محاضرات دينية مساء الجمعة، ويسرح كل أسبوع بفئة من الأعضاء إلى القرى، فيَزجر، ويُرشد، ويَعود[٧٣]. وسهلت له رئاسته للشبان المسلمين حرية الحركة، بين فروعها، وباقى القرى، وهى بمثابة تغطية للأعمال السرية، والإعداد للثورة (للتدريبات العسكرية، تحت أعمال النشاط الرياضى للجمعية)[٧٤]. وسعى القسام، أيضًا حتى أصبح مأذونًا شرعيًّا، فى عام ١٩٣٠ م، بجوار ١٤ شيخًا، وكان هدفه حرية التجول والتداخل مع الجمهور فى أكبر قدر من المناسبات، حتى إنه حين أفتى أحد مشايخ حيفا بمنع الأعراس، بذريعة أن الطبل يجمع الشياطين، قال القسام « اعملوا عرسًا، واعزمونى»[٧٧]!

فكما أقر تنظيم «جمعية العروة الوثقى» بتوظيف المناصرين من الدوائر حول التنظيم، عملًا بالمادة الثالثة عشرة من لائحة التنظيم[٧٨]، نجد عز الدين القسام، يقوم بتوظيف أفراد مجتمعه، بكل طوائفه، كل حسب طاقته، وإمكاناته، فاستعان بالمحامى المسيحى حنا عصفور، الذى يقول: «أنا من تلاميذ القسام، أنا حضرت دروسًا لمعلمنا الشيخ القسام»[٧٧]! وبالمطران، المتبرع، غويغوريوس حجَّار[٧٨]، وبالمرأة التى تقف موقف المساعد، بل المشارك للرجل، فى الثورة، وإعدادها، فكان لها دور تموينى، وبلغ عدد الرواة الذين تحدثوا عن هذا ا الدور ٥٨ راويًا، فحدثتنا رسمية البرغوثى (أم معبد) عن «مشاركتها فى إمداد الثوار بالطعام». وكان لها دور تحريضى، شمل تحفيز الجماهير، وتوعيتهم، والمشاركة فى المظاهرات، وتحدث فى ذلك ٣٥ راويًا، فقالت وديعة خرطبيل «عملنا لجان نطلع على القرى، ونروح نعطيهم توعية، منشان القضية»! والدور الطبى، من تدريب، وتقديم إسعافات أولية، فأولفا الأسود «كانت تعطى دورات للنساء»، وروت خزنة الخطيب أنها كانُت تقدم الإسعافات، حتى قدوم الطبيب، أما الدور العسكرى، والذى شمل حمل السلاح، والمشاركة فى المعارك، أو التدريب عليه، أو القيام بالاستخبَارات العسكرية، أو نقل المعلومات، والأوامر فإن يسرى البربرى «كانت تمول المقاومين بالجبال، والكهوف بالمؤن، والإمدادات العسكرية »[٧٩].

وبعد، فلعل فيما سبق ما يوضح مصادر الإلهام الفكرى للشيخ الشهيد عز الدين القسام، ومشروعه الذى استمده من مشايخه كموروث من موروثات مشروع الحضارة الإسلامية، الذى يدعو للإيجابية فى مواجهة المحتل، الذى وضع به بذرة الجهاد فى فلسطين، والتى كلما استُخْدِم طريق غير طريق القسام فشل، ورجع عليها بالخسران المبين.

***

هوامش الفصل الثالث

(١) على حسين خلف، تجربة عز الدين القسام السورية١٨٨٢ - ١٩٢١، شؤون فلسطينية، (بيروت)، عدد ١٢٤، آذار/ مارس ١٩٨٢، ص١٨.

(٢) سميح حمودة، الوعى والثورة: دراسة فى حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص٢.

(٤) خلف، مصدر سبق ذكره، ص١٩ .

(٥) المصدر نفسه، ص١٩، ٢٢.

(٦) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٢٤.

(٧) بيان نويهض الحوت، الشيخ عز الدين القسام فى تاريخ فلسطين، بيروت، دار الاستقلال،١٩٨٧، ط١، ص ٢٨.

(٨) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦، ٢٨.

(٩) حسنى أدهم جرار، سلسلة المعارك التاريخية على أرض الشام، شعب فلسطين أمام التآمر الفلسطينى والكيد الصهيونى ١٩٢٠-١٩٣٩، ط٢، عمان، دار الفرقان، ١٩٩٢، ص ٩٣.

(١٠) http://www.aw4h.net/showthread.php?t=11204

(١١) أكرم زعيتر، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢، ١٩٨٤، ص٣٩٨.

(١٢) كامل محمود خلة، فلسطين والانتداب البريطانى ١٩٢٢-١٩٣٩، ط٢، طرابلس - ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢، ص٥٩١.

(١٣) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٢٣.

(١٤) محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبى شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ط٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٨، ص ١٧٩.

(١٥) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٢٣.

(١٦) المصدر نفسه، ص٣٢.

(١٧) عبد الرحمن الكواكبى، طبائع الاستبداد ومصارع العباد، ط٣، بيروت، دار النفائس، ص١٨٠.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٨.

(١٩) جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى، ط٣، القاهرة، دار العرب، ١٩٩٣،ص٢٨.

(٢٠) جمال الدين الأفغانى، العروة الوثقى، ط١، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢، ص ٤١٥.

(٢١) محمد عمارة، جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، ط٢، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٨، ص ١٠٨.

(٢٢) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٤٢.

(٢٣) محمد عبده، الأعمال الكاملة ج١، ط١، بيروت، دار الشروق، ١٩٩٣، ص١٦٠.

(٢٤) الأفغانى ومحمد عبده، العروة ...، مصدر سبق ذكره، ص٢١.

(٢٥) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٥٢.

(٢٦) المصدر نفسه، ص٥٣، ٥٤.

(٢٧) جرار، مصدرسبق ذكره، ص٩٩.

(٢٨) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٤٤.

(٣٠) عمارة، جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق..، مصدر سبق ذكره، ص١٦٨.

(٣١) المصدر نفسه، ص١٧٢.

(٣٢) عبده، مصدر سبق ذكره، ص١٢٠.

(٣٣) د.فيحاء عبد الهادى (محررة)، دور المرأة فى الثلاثينيات، ط١، رام الله، مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق، دت ، ص٢٢.

(٣٤) عبده، مصدر سبق ذكره، ص٢٥٧.

(٣٥) عمارة، عبد الرحمن الكواكبى...، مصدر سبق ذكره، ص١٨٤، ١٨٥.

(٣٦) السيد الفراتى، أم القرى، ط١، القاهرة، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٣١، ص ١٥٧.

(٣٧) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٤٥.

(٣٨) الأفغانى وعبده، العروة الوثقى ...، مصدر سبق ذكره، ص٢١.

(٣٩) عمارة، عبد الرحمن الكواكبي...، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٠.

(٤٠) الأفغاني وعبده، العروة الوثقى ...، مصدر سبق ذكره، ص٣٠.

(٤١) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٣٨.

(٤٢) عبده، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤.

(٤٣) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٤٣.

(٤٤) المصدر نفسه، ص٤٦.

(٤٥) الفراتي، مصدر سبق ذكره، ص١٥٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ص١٨٦.

(٤٧) صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ط١، ص٣٣.

(٤٨) جرار، مصدر سبق ذكره، ص١٠٢.

(٤٩) محمد عمارة، جمال الدين الأفغاني موقظ ...، مصدر سبق ذكره، ص٢٢٧،٢٢٨.

(٥٠) جرار، مصدر سبق ذكره، ص١٠١.

(٥١) المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٥٢) محمد عمارة، جمال الدين الأفغاني موقظ ...، مصدر سبق ذكره، ص٢٦١.

(٥٣) المصدر نفسه، ص٢٦٠.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٢٥٥.

(٥٥) محمد عبده، مصدر سبق ذكره، ص٧٨.

(٥٦) خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٨٥.

(٥٧) محمد عمارة، جمال الدين الأفغاني موقظ ...، مصدر سبق ذكره، ص٢٥٨.

(٥٨) جرار، مصدر سبق ذكره، ص١٠٣.

(٥٩) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٤.

(٦٠) أكرم زعيتر، القضية الفلسطينية، ط١، القاهرة ،دار المعارف، ١٩٥٥، ص٤٩.

(٦١) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٤.

(٦٢) عمارة، جمال الدين الأفغاني موقظ ...، مصدر سبق ذكره، ص٢٣٥.

(٦٣) جرار، مصدر سبق ذكره، ص٩٦.

(٦٤) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٤٧.

(٦٥) المصدر نفسه ، ص٤٧.

(٦٦) جرار، مصدر سبق ذكره، ص٩٦.

(٦٧) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٤٧.

(٦٧) http://www.midadulqalam.info/midad/modules.php?name=News&file=article&sid=1049

(٦٩) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٧٠.

(٧٠) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٧١) جرار، مصدر سبق ذكره، ص٩٧،٩٨.

(٧٢) خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٨٥.

(٧٣) حمودة، مصدر سبق ذكره، ص٤٩.

(٧٤) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.

(٧٥) حمودة، مصدر سبق ذكره ، ص٥٠.

(٧٦) عبده، مصدر سبق ذكره، ص٨١.

(٧٧) الحوت، مصدر سبق ذكره، ص٣٥.

(٧٨) زعيتر، القضية ...، مصدر سبق ذكره، ص٤٩.

(٧٩) عبد الهادي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢، ٣٣، ٣٧، ٣٩، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٧٠، ٧٩.

الفصل الرابع

تنظيم القسام

رضوى عبد القادر

ثمة أسئلة مشروعة تفرض نفسها هنا، لماذا اختار القسام صيغة التنظيم السرى، بينما صيغة التنظيم العلنى متاحة من قبل سلطات الانتداب البريطانى؟! لم يكن اختيار الصيغة السرية ترفًا، بل عمدًا إجباريًّا لكل من يتطلع لمجابهة الاستعمار والصهيونية، أما شكل الكفاح الرئيسى للتنظيم السرى فهو الكفاح المسلح.

لكن ما العمل والقيادة التقليدية للحركة الوطنية تهيمن على جماهير العمال والفلاحين وتكبِّلهم تلك القيادة بأساليب «كفاح» عقيمة ، لا تتعدى المذكرة، والمؤتمر، والوفد المسيَّر حينًا إلى حكومة لندن، وأحيانًا إلى المندوب السامى البريطانى فى القدس. لم يكن سوى طريق الدعوة والفكر، فضلًا على أن ما كان يقترفه الانتداب أو الصهيونية يضعف خط القيادة التقليدية ولصالح خط القسام.

بالدعوة والفكر تم خلق رأى عام، وفى القلب منه تيار يقف بقوة مع الكفاح المسلح، الذى تمارسه طليعة، بمثابة البدر الذى يتخذ من ذاك التيار هالة له.

بعد ذلك جاءت خطوة انتقاء عضو التنظيم السرى، وإعداده فكريًّا وعسكريًّا. وأخيرًا تبقى الطريقة التى بدأ بها ذلك التنظيم.

القسام اسم استحق أن يخلِّده التاريخ، استطاع فى فترة غير طويلة أن يصنع حركة، أو تنظيمًا، بخطوط سياسية، وعسكرية، ونضالية لافتة، بمعايير ذلك الزمان. وحاز هذا التنظيم على إجماع وطنى، واعتبر هذا الإجماع إنجازًا سياسيًّا، لا يتكرر كثيرًا، فى تنظيمات أُخرى. أما صانع هذا الإنجاز، فهو عز الدين عبد القادر مصطفى القسام.

نشأته

ولد عز الدين القسام فى بلدة جبلة، قضاء اللاذقية، بسوريا ، عام ١٨٨٢، ونشأ فى بيت علم وأدب. رحل وهو فى الرابعة عشرة من عمره، برفقة أخيه، فخر الدين، إلى القاهرة، حيث تلقى تعليمة بالأزهر الشريف، بعد دراسته العلوم الابتدائية، فى جبلة، وذُكِر أنه ممن «درسوا على يد الشيخ محمد عبده»[١].

رجع القسام إلى بلده، بعد سنوات عديدة (١٩٠٣)، وعمل هناك بالتدريس والوعظ فى جامع السلطان إبراهيم بن أدهم. ولم يكتف بنشر العلم، بل شارك فى حركة الجهاد، فانضم إلى عصبة عمر البيطار فى جبل صهيون، ثم اشترك مع صالح العلى، فى ثورته ضد الفرنسيين، حتى حُكم على القسام بالإعدام، من قبل محكمة عسكرية للاحتلال الفرنسى، فأفلت مع رفيقيه، الشيخين محمد الحنفى، وعلى الحاج عبيد، وقد اختاروا حيفا مقامًا لهم(١٩٢١)، تلك المدينة الساحلية الكبيرة، التى احتضنت الكثير من العرب، وقتئذٍ، وكانت سريعة النمو فى عمرانها، فهى مرفأ فلسطين الأول، وأقرب مدنها إلى لبنان، ودمشق، وهى بلدة متعددة الأقوام، والجنسيات، فضلًا على أنها قاعدة من قواعد التهويد، مما أسبغ عليها حساسية خاصة[٢].

فى حيفا

وجد الشيخ القسام أن الحال فى فلسطين ليس أفضل من نظيره فى سوريا، بل يزيد فى فلسطين بالانتداب البريطانى، تلك الأطماع الصهيونية فى إنشاء «وطن قومي»، تساندها فى ذلك الإمبريالية البريطانية. فأدرك القسام أن الاستعمار وحدة لا تتجزأ، مهما تنوعت أشكاله، ولا بد من الأخذ فى الاعتبار الأخطاء السابقة فى الثورة السورية ضد الفرنسيين.

فى حيفا، اشتغل القسام بالتدريس، فى المدرسة الإسلامية، وبدأ فى رصد الواقع، ودراسة أوضاع الجماهير العربية فى فلسطين، مستفيدًا من العلم الذى حصَّله فى الأزهر، على أيدى العلماء المصريين، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده، الذى قام منهجه الفكرى على تمجيد العقل، ورفض السلطة الدينية، كما أن الشيخ القسام استوعب خبرات ودروس ثورة عشائر صهيون، والتى بيَّنت للقسام أنه لا يمكن إحراز النصر بدون[٣]:

- وحدة إدارة الثورة.
- إقامة تنظيم ثورى محكم.
- تعبئة وتنظيم الجماهير.
- التخطيط العلمى فى العمل الثورى، سياسيًّا وعسكريًّا.
- الوضوح الفكرى، متمثلًا فى خطٍ سياسيٍ واضح وسليم، يحدد العدو والحليف، وطبيعة المرحلة، والهدف الإستراتيجى، والأهداف المرحلية، وأشكال النضال.
- نضج الظروف، والعمل على تهيئتها، لتفجير الثورة.

أصبح ثمة ضرورة قصوى لإقامة تنظيم محكم، سرى، يقود الكفاح الوطنى ضد الانتداب البريطانى والحركة الصهيونية، فى آن واحد. إن فى التنظيم ضمان استمرار هذا الكفاح، وانتصاره، فالحماسة، وحدها، لا تكفى، ولا تصنع ثورة، تستطيع أن تكنس عدو الأمة المزدوج.

مرحلة الإعداد النفسى

بدأ شيخنا مرحلة الإعداد النفسى للثورة ضد الاستعمار منذ عام ١٩٢٢، وعمد إلى اختيار الكيفية دون الكمية. قال أحد رفاقه، وهو أبو إبراهيم الكبير (الشيخ خليل محمد عيسى): إنه كانت للشيخ «حلقات دروس يعلِّم فيها المسائل الدينية، ولكنه كان أكثر المشايخ تطرقًا لضرورة الجهاد، ولمنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها فى بناء وطن قومى على أرض فلسطين. كان يركز على الاستعمار البريطانى، وعلى الصهيونية. ولقد استجوبته السلطات الاستعمارية، لعدة مرات، ولما كانت شعبيته كبيرة، فإن الحكومة تجنبت اعتقاله. وكان من نتيجة وطنية الشيخ، ودعوته للجهاد أن التفَّت حوله جماعة من الرجال، دفعتهم الوطنية والإيمان»[٤].

تعددت المواقع الجماهيرية لدى القسام، التى أفاد منها، وتحرك من خلالها، بادئًا دعايته وتحريضه، منتقيًا العناصر الصالحة منها، لتجنيدها فى تنظيمه السرى، وهذه المواقع هي[٥]:

- «المدرسة الإسلامية»، حيث عمل مدرسًا بها.
- «جمعية الشبان المسلمين»، التى تألف فرعها فى حيفا عام ١٩٢٦، وانتُخب القسام رئيسًا لها عام ١٩٢٨. وقد كان انتسابه إلى هذه الجمعية، فى واقع الأمر، تغطيةً لأعماله السرية، وإعدادًا للثورة، بعد عدة سنوات، فكوَّن عصبة سرية، وشرطاها الأساسيان: أن يقتنى العضو السلاح على حسابه الخاص؛ وأن يتبرع بما يستطيعه لهذه العصبة. وكان بعض أعضاء هذه العصبة من أعضاء «جمعية الشبان المسلمين»، وبعضهم الآخر من خارج الجمعية.
- «مسجد الاستقلال» فى حيفا، حيث أفاد من وجود القسام فيه، كإمام وخطيب.
- قرى شمال فلسطين، حيث كان تعيينه مأذونًا شرعيًّا لها فرصة لطالما وظَّفها القسام لصالح نشاطه السياسى.
- التجمعات العمالية فى الشمال الفلسطينى.

شخصية القسام

إلى تلك المواقع، اتصف القسام بالشخصية الجذَّابة، وحسن السيرة، والمعاشرة، فضلًا على أنه محدِّث لبق، وخطيب بارع، ومن أبرز مهاراته اتصاله بسائر طبقات الشعب، لا فرق عنده بين متدين وغيره، اعتقادًا منه أن إصلاح المستهترين أولى من إصلاح غيرهم، ويمكن للأمة الاستفادة منهم، بعد الإصلاح. وقد توفرت للقسام الفرصة، لدراسة نفسيات الجماهير، منذ أن عُيِّن مأذونًا شرعيًّا لقرى شمال فلسطين، من قبل المحكمة الشرعية، منذ عام ١٩٢٩، واستمر يعمل، بكل الوسائل لتأسيس نواة صالحة من عرب فلسطين، يهيئهم للانطلاق، فى الوقت المناسب نحو الثورة، مهتديًا بقول الرسول الكريم(ﷺ): «واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان». كما أخذ القسام يبث روح الوطنية فى النفوس، داعيًا إلى اتحاد الكلمة، مناديًا بالعودة إلى تعاليم السلف الصالح، ومنددًا بالفرقة وبعواقب الشقاق والتمزق الوطني[٦].

قاوم القسام، بشدة إنفاق أموال الأوقاف فى تشييد الأبنية(الفنادق)، (فندق الأوقاف بالقدس)، وتزيين المساجد، بما فى ذلك المسجد الأقصى المبارك؛ لأن إعداد الشعب للجهاد، وتسليحه لخوض المعركة، أفضل وأحق من الأمور الشكلية، خاصة أن المبالغ التى أُنفقت قدِّرت بمئات الألوف من الجنيهات الإسترلينية، التى كان بالإمكان تسليح خمسة آلاف مقاتل بها، آنذاك. ومع الأسف، لم يؤخذ بهذا الرأى فى إنفاق الأموال(٧).

لقد كان القسام قائدًا مخلصًا، وعالمًا مفكرًا، وإنسانًا رحيمًا، لم يقف، لحظة واحدة، جامدًا أمام الغزو الصهيونى، الذى زرعته بريطانيا، فكان القسام يخطب من على منبر «جامع الاستقلال»، مراقبًا للمصلين، داعيًا من توسم فيه الخير والاستعداد، إلى زيارته فى منزله، وتتكرر الزيارات، حتى يقنعه القسام بالعمل لإنقاذ فلسطين، مما يهددها من خطر، ضمن مجموعات سرية صغيرة، لا تزيد عن خمسة أشخاص، ويقود كل مجموعة نقيب، فيما تولى قيادة التنظيم قيادة خماسية، على رأسهم الشيخ القسام نفسه، أما الأربعة الآخرون فى قيادة التنظيم، فهم: العبد قاسم (فلاح، بائع جاز فى حيفا)؛ محمود زعرورة (فلاح، بائع جاز فى حيفا)؛ محمد صالح(فلاح، كانت لديه كارة أو طُنبر)، أبو إبراهيم الكبير(فلاح، صاحب دكان لبيع الصوف والأكياس)(٩).

عناصر تنظيم القسام

هكذا، نجد أن القسام اعتمد ،أساسًا، على العمال والفلاحين فى تنظيمه، ذلك أنهم الأكبر أهلية فى الكفاح الوطنى، بسبب وقوعهم، أكثر من غيرهم، من الطبقات والفئات الاجتماعية الفلسطينية، تحت ضغوط مثلث ضخم، أولها من الانتداب، وثانيها من الصهيونية، وإذا كان ضغطا الانتداب والصهيونية ينتميان إلى الضغط الوطنى، فإن الضغط الثالث هو طبقى الطابع، من أصحاب العمل، وكبار الملاك الزراعيين العرب الفلسطينيين. لذا فالعمال والفلاحون كانوا الأكثر سخطًا على عدو الأمة، وهم الأشد استعدادًا للتضحية، حيث لن يخسروا إلا قيودهم، ومصادر قهرهم المثلثة.

باستقراء أسماء عناصر تنظيم القسام، تبين لنا أن معظمهم كانوا رجال دين وفلاحين؛ مما يؤكد أن الدين كان ضمير حركة القسام، وأنها كانت حركة فلاحية، فى جوهرها. فقد عبَّرت الحركة القسامية عن امتزاج الدين بالوطنية، والتحام المثقف بالشعب، وهما سمتان سادتا فى المستعمرات، خاصة تلك التى كانت علاقات الإنتاج فيها لم تصل بعد إلى المرحلة

الرأسمالية؛ وفى مثل هذه الحالة، لعب الدين دورًا تقدميًّا، نلحظه فى الحركة الوطنية الجزائرية، إبان الاحتلال الفرنسى للجزائر، وقبلها فى حركة القسام(١٠).

بالإضافة إلى الفلاحين المقيمين والمطرودين، اعتمد القسام على العمال، حيث كان يقيم معظمهم فى أكواخ من الصفيح الصدئ، فى أطراف حيفا، يعانون من التخلف، والبطالة، وانخفاض الأجور، وغياب التأمينات، والحرمان من التنظيم النقابى، فى حين كان العامل الصهيونى يتمتع بالثقافة، والأجور العالية، وحرية التنظيم النقابى، والضمانات، التى كانت تحميه من البطالة والمرض(١١).

لم ينتقل الشيخ من سكنه، فى الحى القديم بحيفا، حيث كان يقطن هناك معدمو الفلاحين، الذين نزحوا من قراهم إلى المدينة، واضطروا إلى العيش فى ذلك المستوى المنخفض من الحياة (منازلهم كانت عبارة عن عشش من الصفيح)، بسبب تدفق الهجرة اليهودية، وسرعان ما أصبح فلاحو المنطقة الشمالية وعمالها يكنُّون للقسام أبلغ الاحترام والمودة، بفضل زياراته المتكررة لهم، واهتمامه الأصيل بتحسين أحوال معيشتهم، ومكافحته الأمية فى صفوفهم، عدا ما اتسم به من أصالة فى الخلق والتقوى(١٢).

الخلايا السرية والتنظيم

بدأ القسام بالحلقة الرئيسية: التنظيم؛ فشرع فى بناء الخلايا السرية، بعد ثلاث سنوات قضاها فى المسح والتقدير، وجعل من شمال فلسطين مسرحًا لنشاطه السياسى، وهى المنطقة التى كانت تموج بالسخط والنقمة، ولهيب الروح الثورية ضد أعداء الأمة ، الإنجليز والصهاينة، بعد أن كان قد تحول معظم الفلاحين المعدمين إلى عمال صناعيين، أو عمال زراعيين، فى حين عانى من لم تُنتزع منه أرضه من الارتفاع الفاحش للضريبة، مقابل الانخفاض الشديد والمتعمد فى أسعار المحاصيل، التى ينتجها الفلاح العربي(١٣). وحسب أحد رفاق القسام فقد استمر الشيخ فى جهاده السرى لانتقاء العناصر النشطة الفعالة، والقادرة على العمل، وقد اتسعت الحلقات السرية، فى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، من خمسة أفراد، لتضم كل منها تسعة أفراد(١٤).

أما تجنيد الأعضاء فكان يتم عن طريق وضع المرشح لعضوية التنظيم، فترة من الزمن، تحت المراقبة، والتدريب. وقد نجح التنظيم فى تجنيد معظم أولئك الذين كانوا يقومون

بأعمال ثورية، أثناء المظاهرات، والإضرابات، والهبَّات الثورية، أى أن التنظيم ضم إلى صفوفه العناصر الطليعية من الشعب، مما طبعه بالحديدية والسرية، فترة ليست بالقصيرة. وقد قُسِّم التنظيم إلى خلايا سرية، ضمت كل منها – كما عرفنا سابقًا – خمسة أعضاء، كحد أعلى، يقود كل خلية نقيب، ويدفع الأعضاء اشتراكاتهم المالية المقررة، التى وصلت إلى عُشر الدخل الشهرى للعضو، لتغطية التزامات التنظيم(١٥).

ثمة ما يرجح أن القسام أقام قسمًا للنساء فى تنظيمه السرى. وإن أكد البعض أن هذا القسم قد توقف عن النشاط بعد استشهاد القسام. وذكر معاصرون أسماء: فاطمة غزال، ورقية حورى ضمن أعضاء قسم النساء (١٦).

فيما اعتمد القسام خطًّا تنظيميًّا، قوامه «التنظيم السرى الطليعي»، وبناء الكوادر السياسية والعسكرية؛ وخطًّا سياسيًّا، اعتبر الاستعمار البريطانى العدو الرئيسى، وتعامل مع الصهيونية كعميلة وتابعة لهذا الاستعمار. أما أسلوب النضال، فكان الكفاح المسلح، وكان الأعضاء يحصِّلون مهارات سياسية وعسكرية تمثلت فى ثقافة سياسية، ودينية، وتدريب عسكري(١٧). ورُوى أن القسام جنَّد نحو ٢٠٠ عنصر، ونظم نحو ٨٠٠ من الأنصار(١٨).

بدأ القسام تأسيس الخلايا السرية، منذ عام ١٩٢٥، على نمط حلقات الأرقم بن أبى الأرقم، فاختار القسام الشكل العنقودى للتنظيم، دون الهرمى، فالأول أكثر ملاءمة لتنظيم شديد السرية، من التنظيم الهرمى.

من خطوات القسام التنظيمية العسكرية تقسيم إخوانه إلى عدة وحدات عسكرية منظَّمة، منها وحدة خاصة بشراء السلاح، ومن قادتها البارزين: الشيخ حسن الباير، والشيخ نمر السعدى. ووحدة للتدريب العسكرى، التى أشرف عليها ضباط ممن خدموا فى الجيش العثماني؛ ووحدة ثالثة لاستكشاف الأمور عن الصهاينة والإنجليز، لمعرفة خططهم السرية، ومن أفرادها: الشيخ ناجى أبو زيد، بالاستعانة بعدد من العمال الذين كانوا يشتغلون فى المصالح الحكومية، وخاصة دوائر البوليس، وقسم منهم عمل مع الصهاينة لمعرفة النشاط السرى للأحزاب الصهيونية؛ ووحدة رابعة من رجال الدين، وعملها الدعاية للثورة فى المساجد والتجمعات، فيما كانت الوحدة الخامسة للاتصالات السياسية والخارجية، ومن أفرادها الشيخ محمود سالم المخزومى، الذى تردد أنه اتصل بقنصل إيطاليا فى القدس، أثناء الغزو الإيطالى للحبشة، صيف ١٩٣٥، وبقنصل تركيا، بقصد شراء أسلحة حديثة(١٩).

عندما أوكل القسام أمر قيادة التنظيم لتلك الوحدات أو اللجان القيادية الخمس ضمن لتنظيمه أداءً يليق بحركة وطنية تواجه عدوًّا مزدوجًا شرسًا، فتوزعت مهام التنظيم السرى على نحو تُشكل جميعًا كلًّا متناغمًا.

٢٠

انشقاق أم تمايز؟! وعمليات متواصلة

أثناء هبَّة البراق (آب/ أغسطس ١٩٢٩) طلب بعض أعضاء التنظيم إعلان الثورة المسلحة، فرفض القسام، معللًا ذلك الرفض، بأن الأزمة الثورية لم تكن قد نضجت، بعد، وأن الإعداد للثورة لم يكن قد اكتمل، كما لم يكن التنظيم قد حقق توسعًا كافيًا. ثم عاد الأعضاء أنفسهم، واقترحوا التوسع فى جمع المال من الشعب، وبشتى الوسائل، إلا أن القسام حذَّرهم من استعمال العنف مع الجماهير، لأن هذا العنف سيعزل التنظيم عن الجماهير، كما أوضح الشيخ أن الشعب «سيدفع تبرعات كافية للثورة بعد إعلانها مباشرة، وبعد أن يعرف أهداف الثورة، ويشاهد الانتصارات». وأكد هذان الموقفان مدى بُعد نظر القسام، وتمتعه بالأناة والصبر الثوريين[٢٠].

فيما أفاد أحد رفاق الشيخ القسام (أبو إبراهيم الكبير)(*) بأن «حادث البُراق دفع بنا إلى الانتقال من مرحلة الدعوة إلى مرحلة العمل». وأضاف الكبير: «اشترينا بندقية، وأحضرنا مدربًا كان اسمه محمد أبو العيون، وكانت تبدأ الجلسة بأن يلقى الشيخ دروسه، ثم تحولت دروس الشيخ من دروس دينية إلى تحريض على الجهاد. وكان المدرب يقوم، فى آخر الجلسة، بتدريب الموجودين على البندقية، واحدًا واحدًا»[١٢]. كما أكد أبو إبراهيم الكبير، فى حديثه أنه كان يعمل مع القسام، حتى حادثة نهلال (١٩٣٣)، وأنه «لم يحدث انشقاق على الإطلاق بين القائد الشهيد وإخوانه، فى عام ١٩٢٩، بل كان الوفاق على أتمه. والانشقاق بمفهومه لم يحدث لا فى حياة القائد الشهيد، ولا بعد استشهاده... والذى حدث بالفعل كان خلافًا بسيطًا على توقيت إعلان الثورة، فى أوائل عام ١٩٣٥»[٢١].

(*) تؤكد بعض المصادر العربية حدوث انشقاق داخل حلقات القسام؛ إذ انشق عدد من إخوان القسام، وعلى رأسهم أبو إبراهيم الكبير.
انظر: صبحى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥.
الكيالى، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢.

بعد أن شاركت جماعة القسام فى هبَّة البُراق بدأت، منذ عام ١٩٣٠، فى اغتيال ضباط إنجليز، ومهاجمة السكك الحديدية، وفى ٥/ ٤/ ١٩٣١ قامت فرقة قسامية بمهاجمة حافلة، فى مستعمرة الياجور، كانت تحمل شبانًا يهودًا، فقتلوا منهم ثلاثة، وأعلنت حكومة الانتداب مكافأة قدرها أربعمائة جنيه لمن يدل على القتلة، إلا أن حكومة الانتداب لم تستطع القبض عليهم. وفى ٧/ ٤/ ١٩٣١ قام القساميون بإطلاق النار على مستوطن من مستعمرة نهلال فأصابوه بساقه، ثم قاموا بمهاجمة مستعمرة عتليت، وأصابوا وقتلوا عددًا من المستوطنين الصهاينة، وتكرر الهجوم على المستعمرات. أما أول عملية كبيرة مذكورة، فهى الهجوم على مستعمرة نهلال، على هامش انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٣، وقتل مدير أحد السجون (يوسف يعقوبي)، وابنه، وأعلنت الحكومة الإنجليزية مكافأة قدرها خمسمائة جنيه لمن يدلى بمعلومات. وقد سيَّر القساميون قطيعًا من الغنم على الطريق إلى المستعمرة، فضاع الأثر. وفى حزيران/ يونيو١٩٣٣، وأثناء مداهمة الشرطة قرية صفوريا، عثرت فى بيت مصطفى على الأحمد على قنبلة مماثلة لتلك المستخدمة فى الهجوم الأخير، حيث اعتقل هو وأحمد الغلاييني(صانع القنبلة)(*)، وخليل محمد عيسى، وكانت تلك المحاكمة الأولى للقساميين،وقد حاول رجل الأمن، الذى تعقب خطى القساميين، انتزاع الاعترافات من المعتقلين، لكنه لم ينجح، وأُعدِمَ مصطفى الأحمد، وسُجن الغلايينى، فيما بُرئ خليل محمد عيسى، وإن كانت علاقة القسام بهم قد ظهرت، خاصة من تردد القسام على مكتب محاميهم حنا عصفور بهدف متابعة الدفاع[٢٣].

فى عملية ثانية بارزة هاجم القساميون عربة تجرها البِّغال، وقُتل فى هذه الحادثة أحد عشر صهيونيًا، وقامت السلطات بقطع الطريق، بين عكا، وحيفا، والناصرة، أما منفذو العملية، فقد عبروا نهر المقطع، ووصلوا إلى بستان آل قسمان سالمين[٢٤].

من السر إلى العلن

أتى النهوض الثورى الذى شمل البلاد (١٩٣٠– ١٩٣٩)، تعبيرًا عن نمو الطبقات

(*) عندما تمكن الغلايينى من صنع قنبلتين فى معمله بحيفا، أعطاهما إلى الحاج صالح أحمد طه، وكان لدى طه ثلاث بنادق حربية، استلمها لنفسه ولإخوانه من القسام. فكان يذهب فى بعض الليالى إلى مستعمرات الصهيونية، مع الشيخ أحمد التوبة والشهيد الأحمد، ويطلق النار على من يجد من الصهاينة. وعند صنع القنبلتين، وضعوا الأولى فى مسكن أربعة حراس صهاينة فى مستعمرة نهلال، الواقعة بين حيفا والناصرة، قرب قرية المجدل، فقتلت صهيونيين، وجُرح آخرون، وظلت الثانية فى بيت الأحمد على النحو المبين أعلاه.

الجديدة: البرجوازية بفئاتها؛ والعمال فى إطار تفاقم الأزمة الاقتصادية العالمية(١٩٢٩ - ١٩٣٢) وتصاعد المد الثورى فى العالم. ومن جهة أخرى كان ذلك النهوض الثورى رد فعل لتزايد عمليات طرد الفلاحين من أراضيهم، ولإجراءات حكومة الانتداب البريطانى، وموقفها، إذ استمرت فى تأييدها لمشروع «الوطن القومى اليهودي» وسهَّلت الهجرة اليهودية، كما أمعن الانتداب فى تشويه النمو الاقتصادى، وانعكس كل هذا على المجال السياسى، وأدى إلى إحداث تمايز تمثل فى تبنى كبار الملاك للاتجاه الدينى، وتبنى العناصر البرجوازية للاتجاه القومى الليبرالي[٢٥].

بحلول عام ١٩٣٥، شعر القسام بحسه الثورى المرهف، أن الظروف قد نضجت، بما يتيح له خوض غمار الكفاح المسلح ضد الانتداب والصهيونية[٢٦]:

- انقسام قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية على نفسها، واختلافها فى كل شيء، إلا فى التقرب من سلطات الانتداب.
- افتضاح أمر هذه القيادات لدى قطاعات غير يسيرة من الشعب، واقتناع تلك القطاعات بعدم جدوى الأساليب السلبية فى الكفاح؛ مما زاد من استعداد الجماهير للتحرك فى خط الكفاح المسلح.
- اتساع تنظيم القسام وانتشاره(*).
- حصول القسام على السلاح اللازم لحركته، وتخزينه فى قريته «جبلة». ومنذ أوائل عام ١٩٣٥، شهد المثلث العربي(جنين- نابلس- طولكرم) سيلًا من الاغتيالات للضباط الإنجليز، والمشتبه فى تعاونهم من بين العرب مع سلطات الاحتلال، أو الصهيونيين[٢٩].

تضافرت كل هذه الشروط، فضلًا على اتساع دائرة العمال العرب الفلسطينيين العاطلين، والاستفزازات الصهيونية، كالتدريب العسكرى السافر؛ ومهاجمة الفاشيين الصهاينة من أتباع المتطرف فلاديمير جابوتنسكى للقرى العربية؛ واكتشاف شحنات كبيرة من

(*) روى أحد القساميين أن التنظيم ضم نحو مائتى عضو[٢٧]، فى حين ذكر دروزة أنهم كانوا فى حدود الخمسين عضوًا[٢٨].

الأسلحة المهربة للصـهاينة(*)، مقابل تساهل السياسيين العرب الفلسطينيين نحو حكومة الانتداب.

قرر القسام القيام بأعمال الجهاد علانية؛ لرفع معنويات عرب فلسطين، وإبرازًا للأهداف التى كانوا يجاهدون فى سبيل تحقيقها، وإحباطًا للدعاية المعادية، التى حاولت إظهار أعمال القساميين على أنها أعمال إجرامية، وأنهم مجرد عصابة للسلب والنهب[٣١].

كان القسام قد سارع إلى رأس الحركة الوطنية، آنذاك، الحاج أمين الحسينى، طالبًا منه تعيينه واعظًا عامًّا متنقلًا، لتيسير تنقلاته وسترها؛ للحض على الثورة فى أرجاء فلسطين، غير أن الحسينى اعتذر عن عدم تلبية رغبة القسام، بدعوى أنه- أى الحسيني- يعمل لحل القضية سياسيًّا! وعاد القسام إلى حيفا، وعندما اقتربت ساعة الصفر(أوائل ١٩٣٥)، أرسل القسام أحد مساعديه (محمود سالم المخزومي)، إلى الحسينى، طالبًا منه إعلان الثورة فى الجنوب، فى الوقت الذى يعلنها القسام فى الشمال، وفعلًا اتصل المخزومى بالحسينى، بواسطة أحد مساعديه، وهو الشيخ موسى العزراوى، ونقل إليه رغبة الشيخ القسام، فأجاب الحسينى، بواسطة العزراوى، بأن الوقت لم يحن، بعد، لمثل هذا العمل، وأن الجهود السياسية التى تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقوقهم! إذ كان الحسينى حَسَن الظن بالإنجليز[٢٢]. والغريب فى الأمر ، أن الحسينى لم يشر، ولو بكلمة واحدة، إلى الشيخ القسام وحركته فى كتابه «حقائق عن قضية فلسطين»، الذى طبع عدة مرات فى خمسينيات القرن العشرين[٢٣].

عودة القسام هنا إلى مفتى القدس أتت لوعى الأول بأن المفتى كان يستقطب حوله الكتلة الرئيسية من جماهير فلسطين، كما أن المفتى، فى نهاية الأمر وطنى، معادٍ للاستعمار والصهيونية[٣٤].

آثر القسام، بعد فشله فى اجتذاب المفتى، أن يفجِّر الثورة المسلحة بدونه وقرر البدء بالثورة فى الأرض الجبلية، وعقد آخر اجتماع فى مدينة حيفا ، مركز الثورة الرئيسى، فى منزل المخزومى، ليلة ١٢/ ١١/ ١٩٣٥، وباع أصحاب القسام حلى زوجاتهم، وبعض أثاثهم، واشتروا بثمنها رصاصًا وبنادق ثم قصدوا جبال يعبد القريبة من حيفا ومن مرسى الأسطول البريطانى، ومعسكرات الإنجليز، غير عابئين بقوة بريطانيا المسلحة. وروى أحد

(*) فى ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٣٥ سقط برميل إسمنت فى ميناء يافا، فاتضح أنه مليء بالأسلحة ضمن ٧٥ برميلًا باسم الصهاينة فى تل أبيب، فوجد القسام فى هذه الحادثة « اللحظة الثورية» المناسبة لإعلان الثورة المسلحة.

قادة «حزب الاستقلال» بأن عدد الذين خرجوا مع القسام كانوا عشرة، وأنهم دعوا إخوانهم الباقين للانضمام إليهم، وكان مع كل واحد منهم بندقية، ومبلغ ضئيل من المال يقيم به أوده. وقد روى أهالى قرية يعبد ـ حيث كان القسام يرابط بجماعته على مقربة منها ـ أنهم لم يسألوهم، أو يطلبوا منهم شيئًا بل كانوا فى النهار يأوون إلى كهوفهم، ويصلون، ويقرؤون القرآن، وفى الليل يخرجون إلى القتال[٣٥].

أكدت مصادر أُخرى أن عدد رفاق القسام، الذين خرجوا معه إلى قضاء جنين بلغ ٢٤ (وهو العدد الأقرب إلى الصواب)؛ وذلك للحض على الثورة، وتدريب الفلاحين، وتشكيل ما يُعرف منذ ستينيات القرن العشرين اسم «البؤرة الثورية». وقد اختار القسام قضاء جنين، لوقوعه فى جبال الجليل الوعرة، ذات المواصلات الصعبة، مما يعرقل مواجهة سلطات الانتداب له، فيما كان القسام بنى تنظيمه فى حيفا، المدينة الأكثر تعليمًا، والأشد كثافة، واستعدادًا للتنظيم منهم فى الريف، وحيث القبلية، والطائفية، والإقليمية شبه محطّمة، وحيث الصراع السياسى أكثر وضوحًا، واحتدامًا. ثم انتقل القسام إلى الريف، بمجرد عزمه على إشعال فتيل الثورة، ودل هذا على مدى حكمته، وبُعد نظره، فالرِّيف هو المكان الذى تضعف فيه قبضة السلطة الاستعمارية، ويتوفر الأمان فى بطون الجبال، وأعماق الغابات للطلائع والعصابات المسلحة[٣٦].

اكتشاف أمر القسام واستشهاده

أول قرية دخلها القسام، بعد خروجه من حيفا، ليلة ١٢/ ١١/ ١٩٣٥ هى كفر دان، ومنها أرسل من إخوانه إلى قرى يعبد، وعرابة، وفقعوعة، وصندلة، وقباطية، ليشرحوا أهداف الثورة الوطنية، وكانت الرصاصة الأولى للثورة فى ١٤ من الشهر نفسه، حيث قتل القسامى محمود سالم، شرطيًا صهيونيًا، من مستعمرة عين حارود، ويسَّر ذلك الحادث اكتشاف أمر القسام ورجاله، خاصة بعد اختفائه من «مسجد الاستقلال» بحيفا، لذلك أعلنت سلطات الانتداب عن مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يدلها على القسام. وانقسمت قوات القسام إلى مجموعتين، أولاهما مع فرحان السعدى، وقد اتجهت إلى نورس، عند طريق حيفا-الناصرة، وقامت هذه المجموعة بتخريب المواصلات الإنجليزية، أما المجموعة الثانية فكانت مع القسام ووصلت إلى يعبد التى كانت مطوَّقة بالقوات البريطانية. وذكر عضو جماعة القسام،

عربى بدوى أنه رأى شخصًا فى المكان، فطلب من القسام القبض عليه، لكنه رفض، وكان ذلك الشخص جاسوسًا دل الإنجليز على القسام ورفاقه[٣٧].

كانت حادثة عين حارود، الأولى التى كشفت عن مركز القيادة القسامية، وفى صباح ١٩/ ١١/ ١٩٣٥ تحركت قوات كبيرة من البوليس البريطانى، إلى قضاء جنين، وطوّقت قرى يعبد، وبرقين، وكفر دان، وفقوعة بقصد القضاء على الثورة، وقادتها، وهى فى المهد، وكان عدد القوات البريطانية المهاجمة بين ٤٠٠-٦٠٠، أى أن كل مجاهد قاتل نحو أربعين جنديًا، وجعل البريطانيون فى مقدمتهم الجنود العرب، وكان قتالًا انتحاريًا، بالنسبة للقسام وإخوانه، لكنه أفضل، على كل حال، من الاستسلام. واستمرت المعركة من الصباح حتى الظهر (نحو ست ساعات)، وقتل من الإنجليز نحو ١٥ جنديًا، ولكنهم اعترفوا باثنين فقط، فيما استشهد الشيخ القسام، ومحمد حنفى أحمد (المصري)، ويوسف الزيباوى، واعتقل خمسة من رفاق القسام، واضطر الآخرون إلى الاختفاء فى الجبال، لإتمام رسالة القسام الثورية المقدسة فى الوقت المناسب. وقد كان للعالم الشيخ كامل القصّاب وزملائه دور بارز فى استلام زمام المبادرة بعد القسام[٣٨].

كان القسام قد رفض الاستسلام، أثناء المعركة التى استشهد فيها، وأجاب «إننا لن نستسلم، إن هذا جهاد فى سبيل الله والوطن». والتفت إلى زملائه قائلًا: «موتوا شهداء»! وحين رأى فى القوى المحاصرة عددًا من الجنود العرب، صاح فى رجاله: «إياكم ومقابلة رصاص الجنود العرب بمثله، ولكن عليكم بالإنجليز فاجعلوهم هدف رصاصكم»[٣٩].

لعبت حركة القسام دورًا بارزًا فى التاريخ الوطنى الفلسطينى، عامة كما ألقت ظلًا كبيرًا على المسرح السياسى الفلسطينى خاصة. وأصبح القسام ورفاقه رمزًا للتضحية والفداء، فنظر الرأى العام العربى الفلسطينى إليهم نظرة تقدير بالغ؛ مما أدى إلى ظهور كتل سياسية من الشباب بقيادات ثورية جديدة.

دروس الحركة[٤٠]

١- خلا تنظيم القسام من الملامح الرجعية لبعض الاتجاهات الوطنية، آنذاك، والتى خلطت بين الصهيونية واليهودية، وتجاهلت العدو الرئيسى.

٢ـ كان التنظيم كالومضة، فى قوة وهجها، وسرعة خبوئها، إلا أنها كانت عميقة الدلالة، فهى المبادرة الأولى لخوض الكفاح المسلح، بشكل منظَّم، والمرة الأولى التى تم فيها تحرك ثورى بمعزل عن القيادة التقليدية للحركة الوطنية، وفى هذا تكمن أهميتها.

٣ـ حفز التنظيم الجماهير لمضاعفة النضال، وأبان لها الطريق، رغم أن التنظيم لم يحقق أهدافه.

٤ـ كشف التنظيم القسامى مدى خور وتردد قيادة الحركة الوطنية شبه الإقطاعية.

٥ـ فتح الباب أمام الجماهير لانتزاع زمام المبادرة من القادة التقليديين، فنشبت ثورة ١٩٣٦ بمبادرة شعبية خالصة، وبمعزل عن القيادة التقليدية، وإن نجحت تلك القيادة فى تطويق واحتواء الثورة فى وقت لاحق.

٦ـ أصابت ضربة الاستعمار القاصمة التنظيم القسامى، فلم يأخذ فرصته زمنيًّا لتجميع الجماهير وتوضيح أهدافه.

٧ـ فرضت عدة اعتبارات أمنية على القسام وقف تنظيمه على النخبة؛ مما أدى إلى ضيق حجم التنظيم.

٨ـ حصر القسام نشاطه السياسى، والتنظيمى، فى منطقة واحدة (شمال فلسطين)، فكان الخطأ العسكرى الرئيسى الذى وقع فيه القسام؛ مما سهَّل على الاستعمار الإجهاز على انتفاضة القسام المسلحة فى قضاء جنين، ومنع وصول شرارتها إلى بقية المناطق ولكن إلى حين.

مهما يكن من أمر حركة القسام، فإنها كانت المقدمة، بل البداية الحقيقية لثورة ١٩٣٦، ولم تكن الأشهر الخمسة التى فصلت بينهما إلا الفرصة التى تمكن فيها رفاق القسام من التقاط أنفاسهم، ولم شملِهم، ونجح تنظيم القسام هذه المرة فى تفجير الثورة التى امتدت ثلاث سنوات متصلة، سطَّر فيها الشعب العربى الفلسطينى أروع آيات التضحية ، والبطولة، والفداء فى تاريخ العرب الوطني[٤١].

وبعد، فإن التنظيم الجديد للثورة هو الأساس للكفاح المسلح الهادف، كما أن الدين ـ لعب ولا يزال يلعب ـ دورًا غير هيِّن فى تاريخ المقاومة ومن ثم فلا مفر من توظيف البعد الدينى فى التعبئة والمعنويات حتى تكتمل عناصر انتصار المقاومة.

هوامش الفصل الرابع

(١) خير الدين الزركلي، الأعلام، دمشق، ١٩٥٦، ج٧، ص١٤٩.

(٢) عادل حسن غنيم، الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ - ١٩٣٦، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص٢٩٤.

(٣) عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، أيار/ مايو ١٩٧٥،ص١٤٩.

(٤) من حديث لأبى إبراهيم الكبير في: الثورة الفلسطينية(دمشق)، العدد ١٩، ١٥/ ٩/ ١٩٦٩، ص٢٤.

(٥) للمزيد انظر:

- ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٤٩-١٥٠؛
- د.محمود كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩، ط٢،طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢،ص٥٨٣-٥٨٤؛
- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص٢٩٤.

(٦) للمزيد انظر:

- صبحى ياسين، الثورة العربية الكبرى فى فلسطين١٩٣٦-١٩٣٩، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص٣٠-٣١؛
- عمر أبو النصر؛ أمين عقل؛ إبراهيم نجم، جهاد فلسطين العربية،ط١، يافا، ١٩٣٦، ص٢٧٠-٢٧١.

(٧) صبحى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٢-٣٣.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٩) من حديث...، مصدر سبق ذكره، ص٢٥-٢٦.

(١٠) عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٥٢.

(١١) المصدر نفسه، ص١٤٩-١٥٠.

(١٢) عبد الوهاب الكيالى، تاريخ فلسطين الحديث، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، نوفمبر، ١٩٧٠، ص٢٩٣.

(١٣) عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٤٩-١٥٠.

(١٤) خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٨٥.

(١٥) عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٥١- ١٥٢.

(١٦) لمزيد من التفاصيل فى هذا الصدد يمكن الرجوع إلى:

فيحاء عبد الهادى، دور المرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات/ المساهمة السياسية للمرأة الفلسطينية، رام الله، مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتطبيق،د.ت.، ص٢٢-٢٧، ١٤٥- ٤٥٤.

(١٧) عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ١٥٢.

(١٨) الكيالى، مصدر سبق ذكره، ص٢٩٣.

(١٩) صبحى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٤؛ عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.

(٢٠) انظر:

- صبحى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٥.
- عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٥٣.

(٢١) من حديث...، مصدر سبق ذكره، ص٢٤.

(٢٢) خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٨٦.

(٢٣) للمزيد انظر:

- صبحى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٧-٣٨.
- خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٨٨.

(٢٤) بيان نويهض الحوت، الشيخ المجاهد عز الدين القسام فى تاريخ فلسطين، ط١، بيروت، دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧،ص٥٦.

(٢٥) عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١١٣-١١٤.

(٢٦) المصدر نفسه، ص١٥٣-١٥٤.

- خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٩٦.

(٢٧) صبحى ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٤.

(٢٨) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، الجزء الثالث، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٥١، ص١٢٠.

(٢٩) صالح مسعود أبو يصير، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، بيروت، دار الفتح، ١٩٦٨، ص١٧٧.

(٣٠) الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤- ٢٩٥.

(٣١) إميل الغوري، المؤامرة الكبرى، اغتيال فلسطين ومحق العرب، القاهرة، ١٩٥٥، ص٧٦، ٧٧.
- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣-٢٩٥.

(٣٢) صبحي ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٢.

(٣٣) خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٩٠.

(٣٤) للمزيد انظر:

- المصدر نفسه، ص٥٨٨-٥٨٩؛

- عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٥٤-١٥٥.

(٣٥) للمزيد، انظر:

- صبحي ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٢.

- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص٢٩٥.

- دروزة، مصدر سبق ذكره، ص١١٦.

(٣٦) عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٥٥-١٥٦.

(٣٧) للمزيد انظر:

- صبحي ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٣٨-٣٩.

- علي حسين خلف، تجربة عز الدين القسام السورية، شؤون فلسطينية، (بيروت)، العدد ١٢٤، آذار/ مارس ١٩٨٢، ص١٧-٣٥.

(٣٨) للمزيد انظر:

- خلة، مصدر سبق ذكره، ص٥٩٣- ٥٩٤ (أسماء الشهداء والجرحى).

- صبحي ياسين، مصدر سبق ذكره، ص٤٩-٤١.

- غنيم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٦- ٢٩٧.

(٣٩) انظر:

- المصدر نفسه، ص٢٩٦؛

- دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ١١٦؛

- ناجي علوش، المقاومة العربية في فلسطين المحتلة، منظمة التحرير الفلسطينية، مراكز الأبحاث، ١٩٦٧، ص١٠٣.

(٤٠) عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٥٧-١٥٩.

(٤١) المصدر نفسه، ص١٥٩.

الفصل الخامس

القسام عربيًا وإسلاميًا

سناء سلامة

إن الأمم المتطلعة إلى الحياة، والراغبة فى توطيد مصيرها، هى التى لا تعرف الاختلاف فى ساعة الخطر، والتى تتجه، دائمًا، إلى المثل العليا، نابذة الفوارق الجزئية بين الجماعات، والأفراد، ونازعة إلى مجابهة الأخطار المحدقة بها فى صفوف متراصة، وجبهة متحدة.[1]

إذا استعرضنا ما هو عربى، وإسلامى، فى حياة محمد عز الدين القسام، الذى ولد عام ١٨٨٢، فى جبلة (من أعمال اللاذقية السورية)،نجد أنه، ووفق ما جاء فى كتاب «المعجم الجامع فى تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين : الشيخ عز الدين القسام»، التحق للدراسة بالأزهر، فى مصر عام ١٨٩٦، فتعرف على الاستعمار الغربى، وجهًا لوجه، وعايش بنفسه الصراع « بين المفكرين المتغربين، وبين المفكرين الإسلاميين»، وبين مدرسة الشيخ محمد عبده، ومدرسة الشيخ رشيد رضا الشامى، اتضح أمام عينى القسام / الجهاد وسيلة للدفاع عن حقوق الأمة، وللعودة بها إلى سابق مجدها،[2] ولما دخلت القوات الإيطالية طرابلس الغرب(ليبيا)، عام ١٩١١، قاد القسام مظاهرة لتأييد الليبيين، ودعا إلى التطوع، وجمع التبرعات، لكن السلطة العثمانية منعته ورفاقه، فعادوا وبنوا مدرسة بمال المتبرعين لتعليم الأميين.

عندما دخلت القوات الفرنسية سوريا، عام ١٩٢٠، رفع القسام راية المقاومة، وباع بيته، واشترى أربعًا وعشرين بندقية، وبعد محاولة فاشلة لاستمالته صدر الحكم بإعدامه، فلجأ إلى فلسطين.(٣)

الوطنية الفلسطينية، والتوجهات القومية

اعتبر الشعب الفلسطينى نفسه، لا يزال جزءًا لا يتجزأ من الأمة العربية، وتحديدًا جزءًا من سوريا، ولم يلحظ الفلسطينيون خصوصية إقليمية لهم إلا بعد تراجع الاندفاعة القومية الأولى، وسقوط الحكومية الفيصلية فى دمشق عام ١٩٢٠، وانحسار الحركة القومية العربية، فوجد الفلسطينيون أنفسهم وحيدين فى الميدان. واختصار القول إن العلاقة بين القومية العربية، وبين الوطنية القطرية الفلسطينية هى علاقة عكسية، فتصاعد القومية العربية وازدهارها، كان يصاحبه تراجع فى القطرية الفلسطينية، والعكس صحيح.(٤)

لنسترجع ما جاء فى صحيفة «الكرمل» الأسبوعية الحيفاوية، الصادرة فى أعقاب المؤتمر العربى الأول، فى باريس (١٩١٣م): «هل جرى الاتفاق على الرضا بمناهضة كل حركة حياتية تظهر منا، وترك أبناء الصهيونية يحيون قوميتهم بموت قوميتنا...؟! هل جرى الاتفاق على أن نبيعهم وطننا، قطعةً قطعة، ليرحِّلونا عنه، فرادى، وجماعات؟!».

أيضًا المقابلة التى أجرتها صحيفة «الأقلام» القاهرية الأسبوعية، فى آذار / مارس ١٩١٤، مع أحد أقطاب الفلسطينيين (خليل السكاكيني)، الذى أكد خلالها على وعى الفلسطينيين بأبعاد المخطط الصهيونى، حيث قال: «إن الصهيونيين يريدون أن يمتلكوا فلسطين، قلب الأقطار العربية، والحلقة الوسطى التى تربط شبه الجزيرة العربية بأفريقيا، وهكذا يبدو أنهم يريدون كسر الحلقة، وتقسيم الأمة العربية إلى جزأين، للحيلولة دون توحدها».(٥)

يقول د. محمد عمارة: «عمت بلوى هذه الغزوة الاستعمارية الحديثة، وأحل الغرب التشرذم الوطنى، والقومى، والقطرى، محل رابطة جامعة الإسلام، فانشغل كل شعب، وكل قطر بتحرره الوطنى، عن قضايا غيره من شعوب أمة الإسلام، ولتكريس هذا التشرذم، ولتأييد هذه القطرية، ولإعاقة أية محاولة للنهضة التى تعيد الحياة، والتكافل إلى أعضاء جسد الأمة الإسلامية، أقام الاستعمار الكيان الصهيونى على أرض فلسطين سرطانًا، عنصريًّا، غريبًا، يقطع وحدة أرض الأمة، ويهدد كل مشاريع النهضة، والوحدة للعرب والمسلمين، لكن إذا

كانت النزعات الشعوبية، والقطرية قد استوعبت الشرائح التى تغربت من مثقفى الشعوب العربية والإسلامية، تلك التى استخدمتها الدول القطرية فى أجهزتها الإدارية، والسياسية، والثقافية، فلقد ظلت جماهير الأمة على ولائها القطرى لرابطة الجامعة الإسلامية، وكانت (مركزية) القضية الفلسطينية، التى تجسدت فيها وحدة دوائر الانتماء: الوطنية الفلسطينية، والقومية العربية، والعقيدة الإسلامية، كانت بمثابة الرباط الإسلامى الجامع لأمة الإسلام، والطاقة المفجّرة للمشاعر الإسلامية تجاه التحديات (الصهيونية - الاستعمارية) المحدقة بالمسجد الأقصى، والقدس الشريف، والوطن الفلسطينى، الذى ربط الله بينهُ وبين الحرم المكى الشريف.[٦]

لقد لمس القسام الفارق الجوهرى بين «الاستعمار الغربى عامة»، الذى يهدف إلى استغلال موارد الدول العربية، ولعل أهم العوامل المشجعة له على ذلك الاختلاف بين الحكام العرب، والضعف العربى، والبعد عن مبادئ الإسلام الثورية، وبين التخطيط لسحب الأرض كاملةً من تحت أقدام أهلها.

فقد عاش القسام فى حيفا، فى الحى القديم، الذى جمع فقراء الفلاحين النازحين من قراهم، بعد استيلاء الصهاينة عليها، وتوطين اليهود المهاجرين فيها، وأبدى القسام اهتمامًا حقيقيًا بتحسين أحوال معيشة الفلاحين الوافدين إلى حيفا، وتعليمهم.

عمل القسام مدرسًا، ثم إمامًا وخطيبًا فى «جامع الاستقلال»، ما وفر للقسام وسيلة لإعداد المجاهدين، وصقل نفوسهم، وتهيئتها للقتال، معتمدًا اختيار الكيفية، دون الكمية.[٧]

فى الواقع لقد ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية، طوال سنوات العشرينيات، تتحرك من خلال إطار فضفاض، هو «المؤتمر العربى الفلسطيني»، الذى كان يتشكل من ممثلى «الجمعيات الإسلامية - المسيحية»، أعيان، وجهاء المدن، ومشايخ القرى، وتقف على رأسه لجنة تنفيذية، مشكّلة من كبار التجار، والملاك العقاريين، وممثلى العائلات المتنفذة، أما تيار الجامعة الإسلامية، والذى كان قد تراجع كثيرًا، فى إطار الفكر السياسى العربى، بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية، فانه لم يعبِّر عن نفسه، سياسيًا، بشكل واضح، طوال تلك المرحلة، ولم تكن فكرة الوحدة الإسلامية أكثر من وسيلة لاستنهاض المسلمين، ودفعهم إلى مؤازرة نضال الشعب العربى الفلسطينى، والتضامن معه.

صحيح أن الدين الإسلامى قد لعب دورًا ملحوظًا فى إذكاء روح المقاومة للمشروع

الصهيونى، خصوصًا أن الصهيونية قد اتخذت من الدين اليهود منطلقًا أساسيًا من منطلقاتها الأيديولوجية، وصحيح أن رجال الدين المسلمين قد اقتحموا ميدان العمل السياسى، حتى أن القيادة السياسية قد اندمجت، فى وقت من الأوقات، بالقيادة الدينية، إلا أن الإسلام السياسى، كتيار يحمل مشروعًا سياسيًا محددًا يقوم على أساس فكرة الجامعة الإسلامية، بقى غائبًا، (لم تبرز جماعة الإخوان المسلمين كتنظيم موحد على ساحة العمل السياسى الفلسطينى إلا فى عام ١٩٤٦).(٨)

هذا، ويعتبر القسام صاحب دعوة استقلالية، وأسلوب متميز، وحركة جهادية رائدة، سبقت جميع الاتجاهات فى ميدان الجهاد المعاصر فى فلسطين.

ليست «حرب العصابات» حدثًا جديدًا فى العالم، وقد نكون أول أمة خاضت حرب العصابات، منذ عهد صلاح الدين الأيوبى، فى القرن الثانى عشر، قبيل معركة حطين الحاسمة، عام ١١٨٧م. وكل مطلع على التاريخ يجد بوضوح نماذج لحرب العصابات فى العالم(فى أمريكا الشمالية، خلال القرن الثامن عشر ضد الإنجليز، وثورة الريف العربى فى المغرب فى أوائل القرن العشرين، والتى أثبتت قدرة العصابات على تحقيق أكبر الانتصارات على الجيوش النظامية).

وقد لجأت الدول الاستعمارية، بزعامة بريطانيا، إلى هذا الأسلوب ضد العثمانيين، أثناء الحرب العالمية الأولى، ويعتبر الزعيم الصينى الشهير، ماو تسى تونج، من أبرز قادة العصابات فى القرن العشرين، ومن الرواد فيدل كاسترو، رئيس وزراء كوبا السابق، وتشى جيفارا، أيديولوجست الثورة الكوبية، وثمة أمثلة لحرب العصابات فى سوريا، وفى مصر، وفى الجزائر، ثم فيتنام ضد الاحتلال الأمريكى.(٩)

لعل أهم الأسس المطلوبة من قائد حرب العصابات، عدا حمل السلاح، تتمثل فى «رسوخ العقيدة الوطنية، وهدوء الأعصاب، والثقافة الواسعة، وتخزين الأسرار، والقوة الجسمانية، وتعوّد الحياة الخشنة، والخبرة بطبيعة الأرض التى يحارب عليها».

أما الشروط المطلوبة من مقاتل حرب العصابات، عدا حمل السلاح، فهى:«الخشونة، حب الوطن بالفطرة، الخبرة بالأرض، الطاعة، القدرة على التصرف إذا أُكره على ترك مجموعته أثناء القتال».(١٠)

التزاوج بين الوطنية والقومية

على الرغم من أن ظروف التجزئة الاستعمارية، التي فرضت على المشرق العربي في عام ١٩٢٠ ، قد أدت إلى انكفاء القومية العربية، وانطلاق الوطنية الفلسطينية، وطغيانها على مسرح الأحداث، فإن أفكار القومية، والوحدة، والتضامن العربى لم تغب، نهائيًا، عن الفكر السياسى الفلسطينى، وقد ساهم التضامن العربى الواسع، مع نضال الشعب الفلسطينى، خلال أحداث هبَّة البراق، فى آب/ أغسطس ١٩٢٩م، بينما تمثل أول مظهر من مظاهر التوجه القومى الوحدوى المتجدد فى الاجتماع الذى انعقد فى مدينة القدس، فى الثالث عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣١م، على هامش «المؤتمر الإسلامى العام»، بمشاركة عدد من القوميين العرب من رجالات الحركة العربية الاستقلالية، حيث اتفق المشاركون فيه على إصدار «ميثاق قومى عربي»، تضمن ثلاثة بنود رئيسية، ركزت على وحدة البلدان العربية، ورفض كل أشكال التجزئة، التى طرأت عليها، وعلى أهمية توجيه الجهود فى كل قطر نحو الاستقلال التام، وعلى ضرورة مقاومة الاستعمار، بجميع أشكاله، باعتباره يتنافى مع كرامة الأمة العربية، وغايتها العظمى.[١١]

بقى التوجه القومى الوحدوى حاضرًا، فى إطار الفكر السياسى الفلسطينى، طوال سنوات الثلاثينيات، والأربعينيات، يبرز، بجلاء، فى بعض الأحيان، كما حصل بعد الإضراب العام فى نيسان / أبريل ١٩٣٦، واندلاع الثورة المسلحة، والتضامن العربى الواسع معها، أو إثر طرح المشاريع الاتحادية العربية، ومنها مشروع الجامعة العربية، فى أواسط الأربعينيات، ويتراجع فى أحيان أخرى، خاصة صارت تطرح فى نهاية الثلاثينيات مشاريع لضمان استقلال فلسطين، فى إطار معاهدة تربطها ببريطانيا، وتحافظ على مصالح هذه الأخيرة فيها.

لا يخفى أن الحكومات العربية قد استغلت ذلك التوجه القومى، والوحدوى، لتفرض منذ خريف عام ١٩٣٦ وصايتها على القرار السياسى لقيادة الحركة الوطنية العربية فى فلسطين، ولتكرِّس سياسة مصادرة استقلالية هذه الحركة، وهو الأمر الذى دفع «عصبة التحرر الوطني» اليسارية العربية الفلسطينية ـ بعد قيامها خريف عام ١٩٤٣م ـ إلى التنديد بالوصاية الرسمية العربية، المفروضة على الحركة الوطنية العربية الفلسطينية، والتحذير من مخاطر التغاضى عن حق الشعب الفلسطينى فى تقرير نهجه الوطنى بنفسه.[١٢]

هنا نتساءل: لماذا تحركت طبقة العمال، وطبقة الفلاحين، أكثر من غيرهما؟!

لقد أحس الفلاحون، والعمال بالخطر الصهيونى، منذ أيام الانتداب البريطانى الأولى، بما يفوق غيرهم من الطبقات والفئات الاجتماعية العربية الفلسطينية، عندما كانت القوات البريطانية تطرد الفلاح العربى من أرضه، أو تقتله فى أرضه، برصاص الرشاشات، ومدافع الدبابات، وتأتى بدلًا منه بمهاجر يهودى من المهاجرين، وكذلك العامل يذهب إلى عمله، فيجد نفسه مستبعدًا لصالح مهاجر يهودى، وهكذا فرض على الطبقة الكادحة العربية الفلسطينية أن تعيش المأساة، وتتحرك للدفاع عن وجودها الإنسانى.

نظرية عمل جمعية القساميين السرية

ما من مخطط مكتوب لحركة القسام؛ لأن الكتابة لم تكن ذات أهمية بالنسبة للعمل، خاصة أن دوائر المباحث، والمخابرات الاستعمارية الصهيونية، كانت تراقب القسام، مراقبة دقيقة، متواصلة، لكن نظرية العمل كانت معروفة بدقة لجميع الأعضاء القياديين:

١ - بريطانيا أصل الداء، وسبب البلاء.

٢ - الحركة الصهيونية، وليدة الاستعمار البريطاني.

٣ - الزعامة السياسية فى فلسطين ليست على مستوى قيادة المعركة، لذلك يجب أن تسقط من حساب الثوار.

٤ - الثورة الشعبية المنظَّمة هى الوسيلة الوحيدة لمنع إقامة دولة يهودية على شبر من أرض فلسطين.

٥ - أسماء قادة الثورة كلها حركية.

٦ - من مسؤوليات الجمعية تعبئة الشعب، روحيًّا، بواسطة خطباء المساجد، والشعراء، والأدباء.

٧ - تدريب مئات الطلائعيين على السلاح، قبل بدء الثورة.

٨ - شراء أسلحة من اشتراكات، وتبرعات الأعضاء، ودفع إعانات لأسر الشهداء، والسجناء، حسب موارد الجمعية المحدودة.

٩ – الاتصال بأعداء بريطانيا، لدعم الثورة.

لعل أبرز معالم الحل الإسلامى للقضية الفلسطينية تتمثل فى:

ا – توسيع دائرة الصراع مع العدو الصهيونى.

ب – دعم الشعب الفلسطينى، حتى يثبت فى أرضه، وصموده، وجهاده؛

ج – السعى لتحقيق نهضة حضارية، تكون مدخلًا للتغيير ، والارتقاء الإيجابى الشامل، فى مجتمعاتنا المسلحة، سياسيًا، واقتصاديًا، وعلميًا، وعسكريًا، حتى نكون قادرين ذاتيًا، على مواجهة تكاليف الجهاد، وأعباء التحرير، وتحقيق شروط التمكين، والاستخلاف فى الأرض، وريادة الإنسانية.[١٤]

منذ مطلع ربيع عام ١٩٣٣، وضعت أسس سياسة مقاطعة حكومة الانتداب، وعدم التعاون معها، وبرز الطابع المناهض للاستعمار، بطلًا جليًا، خلال التظاهرات، والصدامات، التى وقعت فى تشرين الأول / أكتوبر من العام نفسه، والتى لم تتخللها، للمرة الأولى، مواجهات بين العرب، واليهود، وفى ظل هذه المناخات[١٥] بدأت عمليات الإعداد تؤتى ثمارها، فشهدت المنطقة أعمالًا بطولية عظيمة، وشهدت فى أوائل عام (١٣٥٤هـ – ١٩٣٥)، منطقة المثلث (جنين، ونابلس، وطولكرم) سيلًا من عمليات صيد الضباط الإنجليز، ونسف القطارات، والهجوم على معسكرات الجيش البريطانى، وقتل المتعاونين مع الإنجليز، وكانت هذه العمليات تتم فى جنح الظلام، وفى فترات متعاقبة، غاية فى الدقة، والتنظيم والسرية، الأمر الذى أقلق عناصر القوات الإنجليزية،وبث فى قلوبهم الفزع، والرعب، وكان من أثر ذلك أن سرت روح الحماسة بين الناس، وقويت فكرة الجهاد، بعد أن ازداد أعداد اليهود المتدفقين إلى فلسطين، ومحاباة السلطة البريطانية لهم، ومساعدتهم على التمكين والاستمرار.

كان تهريب الأسلحة لليهود من أشد العوامل تأثيرًا، وتحفيزًا على إعلان الثورة، فقد تم اكتشاف عملية تهريب ضخمة للأسلحة الحديثة، مرسلة لليهود، عن طريق ميناء يافا، وكان هذا بتاريخ ١٦/ ١٠/ ١٩٣٥م، وقد أجمعت المصادر التاريخية على كون هذا الحادث من أقوى دوافع ثورة القسام. وأشار عضو جماعة القسام، عربى بدوى إلى أن القسام، بعد اكتشاف الأسلحة المهرَّبة، قال: «إذا لم نهاجم اليهود، فإنهم سوف يهاجموننا».[١٦]

أخيرًا، وفى أحراش يعبد، فى منطقة جنين، يوم ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٣٥م، حددت الشرطة البريطانية مكان القساميين الكامنين هناك، وهاجمتهم بقوات عسكرية كبيرة، ودارت معركة حامية بين المجاهدين، والشرطة، صمد فيها رجال القسام، وقاتل شيخهم ، قتال الأبطال، وظل يكافح حتى خر صريعًا، فى ميدان الجهاد، شهيدًا، كريمًا، فى سبيل إعلاء كلمه الله فوق أرض فلسطين، واستشهد معه بعض إخوانه المجاهدين، وجرح آخرون، وتم أسرهم. نقل الشهداء إلى حيفا، وتمت الصلاة عليهم، فى جامع الاستقلال، وشيعت جثامينهم الطاهرة بتظاهرة وطنية كبرى، نادت بسقوط الإنجليز، ورفض «الوطن القومى لليهود».

كان لاستشهاد القسام أعمق الأثر فى شباب فلسطين، فى الثلاثينيات، والأربعينيات، كما أصبح القسام رمزًا للتضحية، والفداء؛ مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه بحق «شيخ ثوار فلسطين».[١٧]

وبعد ، فقد دلت الأحداث اللاحقة على أن التيار المهادن لبريطانيا، لم يفقد تأثيره، كليًّا، فى إطار الفكر السياسى، والحركة الوطنية الفلسطينية، وهو ما تجلى فى عودة قيادة هذه الحركة إلى سياسة إرسال الوفود إلى بريطانيا، والبحث عن حلول وسط معها، ومن جهة أخرى أظهر توجه رئيس اللجنة العربية العليا، الحاج أمين الحسينى، إلى نسج علاقات التحالف مع النازية الألمانية، أن التيار الوطنى، الذى دفعته الظروف إلى اتخاذ موقف حازم فى مواجهة بريطانيا، بقى هو الآخر عاجزًا عن استيعاب ظاهرة الإمبريالية الحديثة.[١٨]

أخيرًا، لا بأس من أن نتعلم من أعدائنا الصهاينة، الذين قذفوا بديفيد بن جوريون إلى الصحراء وهو الذى لطالما اعتبروه، نبيهم المسلح؛ لأنه أفنى عمره مقاتلًا من أجل مجدهم، انتهى به الأمر إلى صحراء النقب، يقضى فيها سنواته الأخيرة؛ لأنهم استشعروا - احتمالًا- أن سلوكه السياسى شابتة نوازع متعارضة مع ماضيه، ولم يطالب فرد واحد بمنحه ميزات الزعامة. قد تكون هذه الكلمات مدخلًا لليقظة، لعلنا نصرّ على أن تكون خطوات مستقبلنا فى الطريق الصحيح.[١٩]

* * *

هوامش الفصل الخامس

(١) وزارة الإرشاد القومى، الهيئة العامة للاستعلامات، ملف وثائق فلسطين،ط١، ج٢، ١٩٧٠م، ص٧.

(٢) خير الدين بن محمود الزركلى الدمشقى، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، أيار / مايو ٢٠٠٢، ص١٥.

(٣) د. إبراهيم أبراش، البعد القومى للقضية الفلسطينية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، نيسان / أبريل ١٩٨٧، ص٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٣.

(٥) المصدر نفسه، ص١٨.

(٦) د/ محسن محمد صالح، القضية الفلسطينية ، حقائق وثوابت، القاهرة، مركز الإعلام العربى، ٢٠٠٢ ، ص ٧.

(٧) حسنى جرار، الشيخ عز الدين القسام، قائد حركة، وشهيد قضية، عمان، دار الضياء للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨٩،ص٢٥.

لمزيد من التفاصيل انظر:

د عبد الوهاب الكيالى، وآخرون ، موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ١٩٩٠ ،ج ٤ ، ص ١٠١ -١٠٣.

(٨) ماهر الشريف ،البحث عن كيان، نيقوسيا، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية فى العالم العربى،١٩٩٥ ، ص٢٨ .

(٩) صبحى محمد ياسين، حرب العصابات فى فلسطين، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ٦٦.

(١٠) المصدر نفسه، لمزيد من التفاصيل انظر : موقع «نوارس جبلة»، قراءات أخرى «عزالدين القسام» العالم الجليل.

(١١) الشريف، مصدر سبق ذكره.

ـ لمزيد من التفاصيل انظر: جوزيف مارى جيفريز ، فلسطين إليكم الحقيقة، ترجمة أحمد خليل الحاج ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧١، ص٢٣.

(١٢) الشريف ،مصدر سبق ذكره ،ص٣٣.

(١٣) ياسين، مصدر سبق ذكره، ص١٨.

(١٤) صالح، مصدر سبق ذكره، ص ١٧، ١٨.

(١٥) الشريف، مصدر سبق ذكره، ص٣٥.

(١٦) عبد الكريم العلوجى، **عز الدين القسام**، القاهرة، دمشق، دار الكتاب العربى، ٢٠٠٩، ص ٢٣، ١١٢.

(١٧) جرار، مصدر سبق ذكره. لمزيد من التفاصيل، انظر موقع «**إسلام أون لاين**».

(١٨) الشريف، مصدر سبق ذكره، ص٣٦.

(١٩) سفير د.حسين الشريف، **المفهوم السياسى لليهود عبر التاريخ**، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ج١، ١٩٩٥، ص١٠.

* * *

الفصل السادس

القسام في الرواية الإسرائيلية

د.دولت عريقات

خمسة وسبعون عامًا مرت على استشهاد الشيخ المجاهد عز الدين القسام، فى أحراش يعبد الفلسطينية، فقد استشهد القسام فى العشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٣٥م، وهو ممسك سلاحه، وسط إخوانه، مدافعًا عن ثرى فلسطين باستبسال وجسارة منقطعة النظير.

لقد ضحى القسام، بحياته وباستشهاده ظاهرة نادرة فى حياتنا المعاصرة ؛ بعد أن بث فى الأمة العربية روح الجهاد وحب المقاومة كخيار وحيد فى مواجهة الأطماع الاستعمارية.

تحت وطأة الظروف العصيبة التى تمر بها أمتنا العربية، ومع تزايد المؤامرات الأجنبية والصهيونية التى تحاك ضدها، لإضعافها وتشتيت شملها، وبعثرة قواها من أجل السيطرة عليها؛ تبرز ضرورة استذكارنا لأبطالنا، واستلهام أرواحهم الطاهرة، لتحفيز عزائمنا على النضال، ولعل خير بطل نحيي ذكراه فى وسط هذه الظروف هو الشيخ عز الدين القسام.

فقد كان القسام سباقًا فى حمل لواء النهضة وعدم الاستسلام للأطماع الأستعمارية، وهو بذلك استحق أن يكون ظاهرة فريدة ونوعية فى تاريخنا المعاصر، وقائدًا قوميًا فى زمن قلّ فيه أمثال هذا الرجل العظيم، بأفعاله، وأقواله!

نظرًا للأثر الكبير الذى تركه القسام وحركته الثورية على الحركة الصهيونية، ما استدعى ضرورة الوقوف، مليًا، عند المصادر العبرية، التى تناولت الشيخ القسام، ونضاله فى مواجهة الاستعمار، للتعرف على هذا الرجل العظيم من وجهة النظر الإسرائيلية، خاصة وفق المنهج الذى تبنته الصهيونية، منذ بداياتها، والذى يقوم على أساس تثبيت الباطل، واختلاق الأكاذيب، وتشويه الحقائق، ومن ثم إيمانهم بها، حتى تحولت إلى حقائق راسخة على الأرض، رغم معرفتهم ببطلانها، ليس ذلك فحسب؛ بل أصبحت هذه الافتراءات جزءًا من المناهج التعليمية، ومحتويات الكتب الدراسية التى تدرَّس للأطفال فى المدارس الإسرائيلية، وهنا أود أن أستشهد بجزء مما يدرَّس فى هذه الكتب، والذى جاء على لسان المؤرخ الصهيونى البروفسور إيال بارنافيه يقارن فيه بين حركة القسام وبين التنظيمات السرية اليهودية، قائلًا:

«إن حركة الشيخ عز الدين القسام التحررية هى بمثابة تنظيم إرهابى، بينما منظمة (الهاغاناه) و(الإيتسل)، و(الليحي)، هى حركات تحررية، تحمى المستوطنين واليهود القادمين من كل أنحاء العالم»[1].

بالرجوع إلى المصادر العبرية عن الشيخ عز الدين القسام، نلاحظ غلبة الإيجاز لشخص القسام، وتعليمه، ومواقفه ضد القوى الاستعمارية، فى كل من سوريا، وليبيا، وأخيرًا فى فلسطين، باستثناء كتاب وحيد صدر عن القسام، تناول فيه الكاتب حياة القسام، وحركته الثورية، مع الاهتمام بأدق التفاصيل، للكاتب الصهيونى يوفال يردنى، جاء بعنوان «عز الدين القسام... الشبح والأسطورة»، وسوف نعتمد على هذا الكتاب، فى هذه الدراسة، من خلال النصوص المترجمة للأجزاء الخاصة بشخص القسام، وعائلته، وترحاله إلى فلسطين.

حياته

تنحدر أسرة الشيخ عز الدين القسام من عائلة القادرية العراقية، والتى كانت قد هاجرت إلى مدينة جَبْلة فى سوريا، والشيخ القسام هو «عز الدين عبد القادر يوسف مصطفى القسام»، ولد فى عام ١٨٨٢، فى بلدة جَبْلة الدهمية، تلقى تعليمه فى جامع الأزهر الشريف بالقاهرة، حيث اهتم بدراسة الشريعة الإسلامية، وهو فى الرابعة عشرة من عمره، تتلمذ على يد الشيخين رشيد رضا، ومحمد عبده، وكان القسام يرى فى أستاذه محمد عبده ثائرًا اجتماعيًا،

وليس شيخًا ومعلمًا دينيًا تقليديًا [٢]. فتأثر القسام بهذا المناخ الثورى الذى كان حاضرًا، فى تلك الفترة، من تاريخ العمل الوطنى فى مصر، وحين غادر القسام الأزهر الشريف، فى عام ١٩٠٣م كان يحمل شهادة الأهلية، وبدايات الفكر الثورى والعمل الجهادى التى خصَّبتها فى نفسه سنوات الدراسة فى الجامع الأزهر، وتأسست قناعاته بأن طريق الجهاد القائم على التربية الإيمانية الصحيحة هو السبيل الوحيد لتحرير الأراضى الفلسطينية، وأن الأحزاب السياسية لن ترفع نير الانتداب البريطانى عن كاهل الشعب الفلسطينى، ولن توقف زحف الحركة الصهيونية [٣].

كان أبوه يعلِّم القراءة والكتابة فى كُتَّاب القرية، بمثابة الأب الروحى لأبناء القرية كافة، دون استثناء، بمن فيهم ابنه عز الدين، كما اتبع القسام الأب مذهب الإمام أبى حنيفة النعمانى، أما ابن عمه عبد الملك القسام فقد كان إمامًا للمسجد الكبير فى مدينة جبلة، ووالدة القسام تدعى حليمة، وهى الأخت الكبرى لعبد الملك، وأنجب منها ثلاثة أبناء هم: عز الدين، وفخر الدين، ونبيه. وعلى الصعيد المادى، فإن عائلة القسام كانت تتمتع بازدهار اقتصادى بعض الشيء، فى الوقت الذى كان الفلاحون والعمال يعانون فيه من الفقر الشديد فى مدينة جَبْلة، نتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة[٤].

بعد أن حصل الشيخ عز الدين القسام على «الأهلية» من الأزهر الشريف،عاد إلى بلده ثم سافر إلى تركيا، ليتعلم فنون الخطابة، وإمامة الناس فى المساجد [٥]. وبعد فترة عاد القسام إلى بلده، وعمل بالتدريس فى جامع السلطان إبراهيم بن أدهم، قطب الزاهدين، ثم تولى الشيخ عز الدين الخطبة يوم الجمعة فى المسجد المنصورى، وابتعدت خطبته عن التقليد، حيث كان يحض على الجهاد، ويثير الحماس [٦].

تزوج القسام بابنة عمه، واسمها «أمينة»، وكان ثمرة هذا الزواج ثلاث بنات، وقد اتسمت شخصية القسام بالالتزام، والتدين، وكرس حياته لتعليم أبناء قريته وكان يحرص على الانتظام فى أداء الصلاة وصيام شهر رمضان، وكان يحرم على نفسه شرب الخمور، ويدعو أبناء بلده إلى التوقف عن شربها. ولقد صارت له شعبية أكثر من الأفندى؛ مما أثار الذعر بين الأفندية، وعلية القوم من شخصية وتأثير القسام على أبناء جلدته، وقد حاول الأفندى، بمساعدة من السلطات العثمانية، تقليص شعبية القسام، إلا أن الأفندى فشل فى ذلك [٧].

كان القسام يحرِّض على الجهاد، ويعادى الاستعمار، بجميع أشكاله، حيث قاد القسام عدة مظاهرات فى جَبْلة ضد الاحتلال الإيطالى لطرابلس الغرب، ودعا المتظاهرين للتطوع من أجل القتال ضد الاستعمار الإيطالى هناك، وبلغ عدد المتطوعين ٢٥٠ متطوعًا، إلا أن الحكم العثمانى لسوريا، آنذاك، رفض طلب هؤلاء المتطوعين بالتوجه إلى ليبيا [٨]. وبعد أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، فى عام ١٩١٤، تجند القسام فى الجيش العثمانى، كضابط وإمام، وبعد انتهاء الحرب عاد القسام إلى مسقط رأسه فى جَبْلة. وبعد أن خضعت سوريا للحكم الفرنسى، فى عام ١٩١٨، كون القسام ميليشيا عسكرية، وزودَّها بالسلاح، وكان يتقدم الناس للدفاع عن أرضهم المغتصبة، كما عمل على توفير المعونات من الأغنياء، وتوزيعها على أبناء بلدته. وشارك القسام فى قيادة ثورة صالح العلى الوطنية السورية، ضد الحكم الفرنسى، يعلِّم رفاقه ومستمعيه الجهاد المقدس ضد الاحتلال. وبحسب الرواية الإسرائيلية فقد حصل القسام على مساعدة عسكرية من الأمير فيصل بن الحسين عام ١٩٢٠، تقدر بخمسين قطعة (أحد أنواع الأسلحة الخفيفة)، وفور اكتشاف الفرنسيين لهذا الأمر قاموا بمحاصرة القسام، ورفاقه الأربعة، بعد أن تم إغلاق مدينة دمشق [٩].

حاولت الحكومة الفرنسية أن تقنع القسام بهجر الثورة، والرجوع إلى بيته، فأرسلت له زوج خالته، عبد الرحمن أديب، الذى وعده باسم السلطة الفرنسية، بتوليه القضاء وأن تجزل له تلك السلطة العطاء فى حال موافقته على الرجوع إلى بيته، والتخلى عن الجهاد، فرفض القسام، وعاد رسول الفرنسيين من حيث أتى، وبعد فشل الحكومة الفرنسية شراء ولاء القسام، قام الديوان العرفى باللاذقية بالحكم عليه، غيابيًّا، بالإعدام [١٠].

بعد ذلك استطاع القسام ورفاقه الخروج من مدينة دمشق، على الرغم من تطويق الفرنسيين لمنافذ المدينة، واتجه القسام ورفاقه إلى ميناء طرطوس السورى، ومنه إلى بيروت، وصولًا إلى مدينة حيفا الفلسطينية، عبر ساحل البحر المتوسط. وأثناء رحلة القسام إلى حيفا، تراجع ستة من كبار رجاله، وهم: الحاج خالد، وعبد الملك القسام، والحاج على عبيد، والحاج أحمد إدريس، والحاج محمد الحنفى، وظافر القسام، لأسباب مختلفة، وبعد وصول الشيخ إدريس إلى عكا قرر العودة إلى جَبْلة، فيما قرر الحاج خالد العودة إلى مسقط رأسه، فى جبل صهيون، وفور وصوله أعدمه الفرنسيون، أمام كل الناس، وفى ميدان عام [١١].

رحلة القسام فى فلسطين

هاجر الشيخ القسام إلى فلسطين، صيف عام ١٩٢١، بعد انهيار ثورة صالح العلى الوطنية السورية، ضد الاحتلال الفرنسى، حيث كان القسام قائدًا بارزًا من قادتها، مفلتًا من حكم بإعدامه، وقد اتخذ هو ورفيقاه، الشيخان محمد الحنفى و الحاج على عبيد من حيفا مقامًا لهم، قبل أن يعود الأخيران إلى سوريا وكان القسام قد استوعب دروس ثورة العلى المنتكسة، وبدأ فى رصد الواقع، ودراسة أوضاع الجماهير العربية فى فلسطين، فكانت المبادرة الأولى تحت نير الانتداب البريطانى، لخوض الكفاح المسلح، بشكل منظًم، والمرة الأولى التى يتم فيها تحرك ثورى، بمعزل عن القيادة التقليدية للحركة الوطنية [١٢].

لاقى القسام ترحيبًا من الفلسطينيين، الذين سمعوا عنه، حتى قبل مجيئه، وقد تم تعيينه إمامًا لمسجد الاستقلال فى المدينة، عام ١٩٢٥، حيث حول القسام المسجد إلى مقر للجهاد الإسلامى ضد الاحتلال. ففى الوقت الذى كان يعلّم فيه المصلين ومرتادى المسجد التعاليم والشعائر الإسلامية، كان يذهب، ليلًا ورفاقه إلى جبل الكرمل، للتدريب على استخدام السلاح، كما أنه دأب على التجوال فى مناطق الشمال الفلسطينى، من أجل حث المسلمين، ودفعهم إلى الجهاد ضد الاحتلال [١٣].

تمتع القسام بثقافة واسعة، وبراعة فى الخطابة، حيث عُيِّن مدرسًا فى جامع النصر، كما أسس مدرسة ليلية للأميين فى الحى القديم، وأخذ يعلّمهم، ويحضهم على الجهاد، ما أدى لإيجاد صلة حميمة معهم، وقد تم تعيينه إمامًا وخطيبًا فى مسجد الاستقلال بحيفا، وكانت هذه الوظيفة وسيلة لتعزيز اتصاله بالشعب.

كانت الجمعية الإسلامية فى حيفا قد أسست مدارس إسلامية للذكور والإناث، حيث عمل القسام مدرسًا فى مدرسة البرج الإسلامية، التابعة للجمعية الإسلامية، وكان يحض الطلاب على الجهاد، مستخدمًا الأسلوب التمثيلى، حيث كان يقوم، فى نهاية الفصل، بتمثيل بعض الأبطال، من أمثال صلاح الدين، ولم يكن اتصال القسام محصورًا فى كونه مدرسًا، وخطيبًا، وإمامًا، فقد كان لعضويته فى «جمعية الشبان المسلمين» مجال كبير لتوسيع اتصاله بالناس، على مختلف المستويات [١٤]. ولقد تولى القسام رئاسة « جمعية الشبان المسلمين» فى حيفا، صيف ١٩٢٨، كما تم تعيين عبد الرحمن الحاج إبراهيم، ابن الحاج رشيد الحاج

إبراهيم، وهو أحد قادة حزب الاستقلال، نائبًا للقسام فى رئاسة هذه الجمعية. يذكر أن المقر الرئيس لجمعية الشبان المسلمين كان فى القاهرة (١٥).

جاء القسام بفكرة جديدة على زمنه، وهى العمل المقاوم المسلح المنظم. لقد آمن القسام بأن نجاح أى ثورة مسلحة يحتاج لإعداد جيد، فكانت أولى خطواته هى الإعداد والتجهيز. وابتداءً من عام ١٩٢٩، بدأ بتأسيس خلايا عسكرية، للتدريب على السلاح، وكانت قيادته مكونة من خمس وحدات، وهى: وحدة الدعوة، ووحدة الاتصالات السياسية، ووحدة التدريب، ووحدة التجسس وجمع المعلومات، ووحدة جمع التبرعات (١٦).

انطلقت دعوة القسام فى أرض فلسطين من مساجد حيفا، فهى النواة التى أسس فيها دعائم فكره، والإعداد النفسى للثورة، وكانت الدروس والخطب تصب فى تهيئة النفوس والعقول للقتال فى سبيل الله. كانت خطب الشيخ القسام شديدة التأثير؛ مما ألهب مشاعر الشباب الذين التفوا حوله، حيث دفعهم إلى معانى الوطنية والجهاد، التى كان دائمًا ما يتناولها خلال أحاديثه، وكان الشيخ القسام مع نشر دعوته للجهاد، يختار العناصر الطليعية للتنظيم، الذى شرع فى تأسيسه عام ١٩٢٥م، وإن لم تبدأ أعماله إلا فى عام ١٩٢٩م، حيث عمد فى اختياره لتلك المهمة أسلوب التروى قبل الاختيار، فكان يراقب المصلين، وهو يخطب على المنبر، ثم يدعو بعد الصلاة من يشعر بصلاحه، ويتوسم فيه الخير والمقدرة على الجهاد، ويكرر الزيارة حتى يقتنع بالعمل لإنقاذ فلسطين، كما اعتمد أسلوب الشيخ القسام فى إعداد تنظيمه الجهادى على التربية الإيمانية والتضحية، وحسن الإعداد قبل بدء العمليات ضد الصهاينة والمستعمر البريطانى، حيث أسس تنظيمه على تكوين مجموعات سرية لا تزيد على خمسة أفراد، ثم اتسعت بعد ذلك لتضم تسعة أفراد، وكان يشرف على الحلقة الواحدة نقيب، يتولى القيادة والتوجيه، ويدفع كل عضو مبلغًا لا يقل عن عشرة قروش شهريًّا، وأمضى الشيخ القسام سنين طويلة فى مضمار اختيار العناصر وإعدادها وتربيتها على التعاليم الإسلامية(١٧).

كانت حركة القسام تقوم على عدة محاور رئيسية : التحلى بروح الثورة ، وتكوين جماعات سرية، حتى إن مؤيدى القسام، بعد استشهاده، قد وصل عددهم إلى مائتى رجل، وإقامة لجنة لنشر الدعوة الجهادية ضد الاحتلال، والعمل على شراء السلاح، والتدريب عليه، وقتل اليهود، وإعلان الثورة، والخروج ضد المحتل. تلك المحاور الرئيسية لحركة

القسام، كان وراءها سر كبير، وهو أن القسام تمتع بكاريزما (هيبة) خاصة، بلحيته الطويلة، وتعليمه للقرآن، وتجويده للعامة من الناس، وبقدرته على جذب الآخرين، وتعاليمه الدينية التى تدعو إلى الجهاد على الطريق المستقيم، والثورة ضد المحتل. حيث دعا ، فى عام ١٩٢٧، إلى الثورة ضد ارتفاع منسوب الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، والعمل على انتشال الفقراء، وتحويل حياتهم إلى الأفضل، اجتماعيًّا، واقتصاديًّا [١٨].

بعد أن رفض القسام إعلان الثورة، ردًّا على هبَّة البُراق (١٩٢٩م)، حدث تمايز فى منظمته، جراء رفضه الانجرار للمعركة، قبل استكمال الاستعداد، ونتيجة لهذا الخلاف أعلن أبو إبراهيم الكبير عن رغبته فى إعلان الثورة، وجلب السلاح، بأى وسيلة ، لكن القسام رأى أن «اللحظة الثورية» لم تحن بعد، وأنه لا يجب أن يجمع السلاح إلا بوسائل مشروعة ومعروفة. على أن المرجع الصهيونى يُخطئ، حين يقرر بأن القسام قد أقام فى عام ١٩٣٠، جماعات أو «عصابات إرهابية» أخرى، مثل «جماعة الكف الأسود»، وكان أغلب مؤيديه ومؤيدى تلك الجماعة من الفلاحين، والعمال، والفقراء المعدمين، الذين تركت الأزمة الاقتصادية فى البلاد (١٩٢٨-١٩٣٢)، والبطالة أثرًا واضحًا على مجريات حياتهم، وذلك أن أحمد طافش هو من أسس «الكف الأسود»، وقادها [١٩].

ثورة القسام والظروف المحيطة

فى عام ١٩٣٣ ساعد تراكم إجراءات الإدارة البريطانية، والتى كانت تحول دون قيام حكومة فلسطينية مستقلة، فى إيقاظ أعداد كبيرة من الوطنيين على حقيقة السياسة البريطانية فى فلسطين، فقد فتحت الإدارة البريطانية أبواب البلاد أمام الهجرة اليهودية المتدفقة، وجنود سلطات الانتداب وأفراد شرطتها هم الذين كانوا يجلون الفلاحين عن أراضيهم، ويهاجمون المتظاهرين المنادين بالاستقلال، حيث أجْلَت السلطات البريطانية فلاحى عرب الحوارث، بالقوة، عن الواحد والأربعين ألف دونم من مرج ابن عامر التى باعها الإقطاعيون من آل التيان اللبنانيين، فى عام ١٩٢٩، للمنظمات الصهيونية، وبذلك شرَّدت ١٥٠٠ مزارع، بعد أن أدت المعركة التى دارت بين الشرطة البريطانية والفلاحين إلى سقوط عدد من القتلى.

هكذا اشتد النزاع على الأراضى نتيجة بيع الإقطاعيين العرب أراضيهم، وظهور قضية المزارعين المشردين بإلحاح جعل وزير الدولة البريطانى يعلن، فى مجلس العموم، فى ١٤

تموز/ يوليو ١٩٣٣، عزم حكومته تمويل توطين المزارعين العرب الفلسطينيين المشردين، بقرض ينفق منه على تطوير الأراضى أيضًا.

استمرت حوادث العنف فى الريف، وكان من أبرزها، حادثة إجلاء عرب الزبيدات عن أراضيهم فى الحارثية (بالقرب من حيفا)، بعد أن باعها أصحابها إلى المنظمات الصهيونية. وفى هذه الحادثة استخدم البوليس العنف، وقَتل مزارعًا أثناء إطلاق البوليس النار على المزارعين، أما فى المدن فقد وقع ٤٦ إضرابًا مطلبيًّا اشترك فيها ٤٠٠٠ عامل عربى بين أعوام ١٩٣٠و ١٩٣٥ [٢٠].

ففى عام ١٩٣٥، ومطلع عام ١٩٣٦ استمر تدفق الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فيما غدا التوتر بين العرب واليهود على أشده، كما كان عليه منذ مطلع الثلاثينيات من القرن نفسه، واستمر التوتر العربى، والقلق من سياسات الحكومة البريطانية الموالية للصهيونية، وتحولت نهاية عام ١٩٣٥ ومطلع عام ١٩٣٦، إلى وضع مختلف، وقاسٍ على الصهاينة فى فلسطين، وهو الوضع الذى كان ينذر بعواقب وخيمة، نتيجة تكوين جماعات «إرهابية»، تقود التمرد ضد الحركة الصهيونية وضد الاحتلال البريطانى، فى منطقة الشمال، بزعامة الشيخ عز الدين القسام[٢١].

مع اتساع الهجرة اليهودية، ازدادت أزمة العمال العرب حدة، خاصة بعد أن رفع الاستيطان الصهيونى فى فلسطين شعارى، «العمل العبري»، و«احتلال العمل». ولقد أخذت الحركة الصهيونية تدفع سياسة الاستيطان نحو الاقتصار على العمالة العبرية، ورغم مهارة العامل العربى، وانخفاض أجره، فإن الحركة الصهيونية مارست ضغوطًا من أجل احتلال العمل[٢٢]، ولقد توسع الصهيونيون فى الاستغناء عن العمال العرب، الذين كانوا يعملون لديهم. وفى عام ١٩٣٥ كان اليهود يسيطرون على (٨٧٢) مؤسسة صناعية، من أصل (١٢١٢)، ما زاد من الأزمة. فشهدت الحركة العمالية تعاظمًا، وتزايدت الإضرابات المطلبية، حيث وصلت فيما بين (١٩٣٢ـ ١٩٣٥) إلى (٢٦) إضرابًا، شارك فيها أربعة آلاف عامل عربي[٢٣].

هكذا أصبح المواطن العربى يرى تدفق الهجرة اليهودية، علنية وسرية إلى بلاده، والأراضى العربية تسلم للصهاينة، بحراب القوات البريطانية، وازداد الجو توترًا، وجرت اتصالات متعددة بين عدد من بين أبناء الفلاحين والعمال، للقيام بثورة مسلحة، وكان فى مقدمة هؤلاء، جماعة الشيخ عز الدين القسام[٢٤].

إعلان الثورة والاستشهاد

بحلول عام ١٩٣٥، شعر القسام بحسه الثورى المرهف، أن الظروف قد نضجت، بما يتيح له خوض غمار الكفاح المسلح ضد الانتداب البريطانى، والصهيونية؛ فقيادة الحركة الوطنية كانت منقسمة على نفسها، مختلفة فى كل شيء، إلا فى التقرُّب من سلطات الانتداب؛ مما فضح أمرها لدى قطاعات غير يسيره من الشعب، واقتناع الشعب بعدم جدوى الأساليب السلبية فى الكفاح، وفعالية الأساليب الجماهيرية ضد الاستعمار والصهيونية، كما اتسع تنظيم القسام، وانتشر، على نطاق كبير، وحصل القسام على السلاح اللازم لحركته، وتم تخزينه فى قرية جَبْلَة السورية، وكانت حوالى ١٠٠٠ قطعة. وبعد أن عاد القسام إلى حيفا، أرسل أحد أعوانه للحاج أمين يعلمه بعزمه تفجير الثورة المسلحة، ويطلب من المفتى الاشتراك فى الثورة، إلا أن الحاج أمين لم يستجب لنداء القسام، معللًا بأن الوقت لم يحن، بعد، لمثل هذا العمل[٢٥]. ويبدو أن ثمة فجوة كبيرة كانت بين مفتى القدس الحاج أمين الحسينى، وبين القسام، لاختلافهما فى وجهات النظر حيال التعامل مع الجماهير، حيث رفض الحسينى القيام بأعمال اعتبرها ثورية، أو «إرهابية»، وتقود إلى التمرد، ونشر الفوضى، لكن الحسينى تيقن من أهمية ما قام به القسام ورفاقه، بعد استشهاد القسام، مباشرة، حتى أنه زار عائلته، وأولاده، وأعطاهم عشر ليرات تبرعًا فى ذكرى الأربعين للقسام[٢٦].

بعد أن بُحَّ صوت القائد الثورى فى اجتذاب المفتى، آثر القسام أن يفجِّر الثورة بدونه، فعقد آخر اجتماع فى حيفا، مركز الثورة الرئيسى، ليلة ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٥، حيث تقرر خروج عشرات من إخوان القسام، المدربين عسكريًّا، إلى قضاء جنين، للحض على الثورة، ودعوة الشعب للاشتراك فيها، ولقيادة الجماهير، وقد اختار القسام قضاء جنين، تحديدًا، لوقوعه فى جبال الجليل الوعرة، ذات المواصلات الصعبة؛ مما يعرقل تحرك سلطات الانتداب، حيث الفلاحين الأكثر سخطًا على الانتداب والصهيونية، على حد سواء، وهكذا نرى أن القسام اعتمد على المدينة، فى البداية، ليقيم فيها تنظيمه، حيث الأهالى الأكثر تعلمًا، والأشد كثافة واستعدادًا للتنظيم منهم فى الريف، وحيث الصراع السياسى الأكثر وضوحًا واحتدامًا. وعندما قرر مباشرة العمل المسلح انتقل إلى الريف، حيث تضعف قبضة السلطة الاستعمارية، ويتوفر الأمان، فى الجبال وأعماق الغابات، وبذلك يكون هذا المناضل الثورى قد حدد، سلفًا، خط الثورة الفلسطينية (١٩٣٦-١٩٣٩)، حيث لا خيار سوى ممارسة الكفاح المسلح، لتحقيق الأهداف الوطنية[٢٧].

ما حدث أثناء خروج القسام، وجماعته إلى الجبال فى منطقة المثلث، أن قام أحد القساميين بقتل رقيب شرطة يهودى، هو موشيه روزنفلد، وبعد أسبوعين نجحت الشرطة فى تعقبهم، وتخفى رجال الشرطة فى أزياء عادية، وبعد أن حاصروهم، طلبوا منهم الاستسلام، لكن القسام ورجاله رفضوا، وفضّلوا الاستمرار فى القتال حتى النهاية، إلى أن استشهد القسام فى تلك المعركة، فى العشرين من الشهر نفسه ، واستشهد معه ثلاثة من رفاقه، بيد أن استشهاد القسام قد تحول إلى علامة للمحارب العربى، ورمز للوحدة العربية، والموت باستبسال أثناء المعركة، ورفض الاستسلام [٢٨].

ردود الفعل حول الاستشهاد

بعد انتشار نبأ استشهاد القسام، باتت حيفا ليلتها قلعة ساهرة، تندب شهداءها، والوضع المشؤوم الذى يولّد مثل هذه النتائج الخطرة، وقلة من أبنائها استطاعوا أن يذوقوا النوم، بعد سماع نبأ استشهاد القسام، حيث قامت السلطات بتسليم الجثامين إلى أهلها، فى الليل حوالى الساعة العاشرة، فهرعت الجماهير إلى بيوت أصحابها، وفى الصباح الباكر أضربت حيفا، إضرابًا عامًّا وشاملًا، لم يسبق له مثيل، حدادًا على أرواح الشهداء، وكانت الجماهير فى الطرقات منتظرة نزول الجثامين، والسير بها إلى المسجد، فأنزل جثمان القسام، والمصرى، والزيباوى، فكبَّر الناس، وتقدم الوطنى المعروف رشيد الحاج إبراهيم، ولف نعش القسام بالعَلَم العراقى، ولف المصرى بالعلم السعودى، والزيباوى بالعلم اليمنى، وسار الموكب فى نظام منقطع النظير إلى مسجد النصر الكبير، الذى اختير لاتساعه، وكانت جنازة القسام ورفاقه كأنها مظاهرة سياسية ضد الإنجليز، لأنهم «أُس» البلاء» [٢٩]، وبدأت الصحف العربية تتحدث عن الشهيد القسام كبطل قومى.

على النقيض، تزعمت صحيفة «الشمس» الصهيونية المصرية، حملة شعواء على الشيخ القسام ورفاقه، زاعمة أنهم «لو كانوا أشقياء، كما نعتتهم الحكومة فى بلاغها الرسمى، لحفظوا للشعب العربى الكريم، حسن سمعته، ولصانوا له ضميره، ولكنهم لم يكونوا، ويا للأسف، لصوصًا يقطعون الطريق، بل عصابة إرهابية، مضطرمة، مضطربة، تقذف الحمم والنار، والموت على شعب هادئ مسالم». وحاولت الصحيفة، بخبث، إيقاع القراء فى مغالطات متعمدة، وتشويه حقيقة الشيخ عز الدين القسام، والحركة القسامية، وإظهاره فى صورة رجل

الدين الوقور، الذى هجر محرابية القدس، و«خرج إلى الجبال، والوديان والقفار، لا لوجه الله والوطن، ولا لنصرة الدين والمسلمين، بل ليغتال الشباب اليهود الهادئين الآمنين»[٣٠].

كان لاستشهاد القسام، أن دفعت موجته الحماسية زعماء الأحزاب الفلسطينية إلى تشكيل الوفد الموحد، وتقديم مذكرة إلى المندوب السامى البريطانى فى فلسطين، فى ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثانى من العام نفسه، والتى أثارت قلق بن غوريون وزملائه فى رئاسة «الوكالة اليهودية». فقد تأثر بن غوريون كثيرًا من استشهاد القسام، إذ كان، حتى تلك اللحظة، يؤمن بأن العرب لا يحترمون زعماءهم، وأن أى زعيم فيهم على استعداد لبيع الشعب العربى كله، لمصلحته الشخصية، أما الآن، فهذه أول مرة يرى فيها زعيمًا عربيًا يضحى بنفسه، من أجل المبدأ، لذلك سيمنح هذا الحادث العرب قوة أخلاقية غير متوافرة لديهم، حتى الآن . بعد ذلك أصبح واضحًا لبن غوريون أن هذا الحادث سيجر وراءه حوادث عديدة مماثلة، وأن هذا الأمر لابد أن يثير قلق الحكومة البريطانية. من جهة أخرى بدأت التلميحات من الدول العربية المجاورة، ترسل إلى الفلسطينيين، بأنه لا مناص من الدخول فى مجابهة مباشرة مع بريطانيا. ففى مصر - بتأثير العدوان الإيطالى على الحبشة، صيف ١٩٣٥ - اندلعت، فى ١٣ نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٣٥ مظاهرات وإضرابات معادية لبريطانيا، استمرت أسبوعًا كاملًا، كانت تنادى بعودة الدستور، والحصول على الاستقلال [٣١].

فى سوريا ، وتحت شعار المطالبة بتوحيد جميع أجزاء سوريا فى دولة واحدة، اندلعت فى ١١ يناير/ كانون الثانى ١٩٣٦ مظاهرات وإضراب عام، استمر خمسين يومًا، وقد حقق العمل المباشر ضد الدول العظمى الأوروبية مكاسب، سواء فى سوريا أو فى مصر، فى حين أن الفلسطينيين كانوا يشعرون بأن وجودهم مهدد، لذا أدركوا، من خلال تجارب الدول المجاورة لهم، أن الطريق الصحيح هو طريق الإضرابات العامة، والعنف، الذى بدأ شعلته الثورية القسام ورجاله، ما دفع بن غوريون إلى أن يؤكد أنه توجد لشعب فلسطين حركة وطنية « حركة شعبية» ـ على حد تعبيره ـ تطالب بحكومة وطنية، تكون خاضعة لبرلمان وطنى منتخب، حدود أرض آبائهم وأجدادهم، وتحت هذا الشعار، ثاروا عدة مرات، حتى أعلنوا الحرب فى ١٩٣٦ والثورة، وقدموا الضحايا بالمال والأرواح، ويكفى أن بن غوريون قد وصف الشيخ عز الدين القسام بأنه « ترومبلدور العرب»(*) [٣٢].

(*) نسبة إلى يوسف ترومبلـدور» (١٨٨٠-١٩٢٤)، زعيم صهيونى أصبح رمزًا للجيل القديم من الصهاينة الرواد المقاتلين الذين جاؤوا إلى فلسطين. وقد جاءت حركة «بيتار» المسماة باسمه بعد ذلك لتركز على النواحى العسكرية الصهيونية فى فكره. ولا تزال منظمات الشباب الصهيونية ترفعه إلى مرتبة المثل الأعلى.

الأثر التاريخي لحركة القسام

ـ اعتقد المستعمر البريطاني، والمستوطن الصهيوني أنه بموت القسام، قد أسكت صوته، وكسر إرادة الجهاد في الشعب الفلسطيني، واعتقد قائد البوليس الإنجليزي أنه بإهانة جثمان الشهيد القسام، الذي وطئ ذاك القائد بقدمه على رقبته قد نجح في إخماد الثورة، لكنه لم يعِ أن استشهاد القسام ألهب في نفوس أتباعه من بعده حرارة الجهاد التي قادت الثورة الفلسطينية، خلال الأعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩م. وأورقت أشجار القسام، التي كان ينميها في محاضن التربية، كما أثمرت خطبه الرنانة في جموع الشباب، وبرغم استشهاده في بواكير الإعلان عن ثورته غير أن استشهاده أحيا تلك الكلمات الثائرة، فصارت أشخاصًا، وتضحيات، فأضحى القساميون بالآلاف[٣٣].

ـ قدم استشهاد القسام نموذجًا عمليًا في التضحية والفداء لأحد كبار العلماء في فلسطين. وكان استشهاده علامة فارقة في تاريخ فلسطين الحديث، وأحدث تَغيرًا أساسيًا في مسار الحركة الوطنية الفلسطينية؛ إذ إنه كرَّس البديل الجهادي، بعد سنوات من العمل السياسي غير المجدي، وألهبت حركته وتضحيته الحماس، وصارت مثلًا رائعًا للجرأة، والجهاد العلني ضد الإنجليز[٣٤].

ـ ساهمت ثورة القسام في رفع منسوب الحقد والكراهية على الإنجليز واليهود، وما أثار حفيظة العرب، مرة أخرى، حيث أدركوا أن الإنجليز هم وراء الوطن القومي اليهودي، وأنهم يقفون موقف العداء للعرب؛ مما أجبر الحكومة على أن تفكر في الأمر كثيرًا، وتصطنع الوسائل لاسترضاء العرب، وتهدئة مشاعرهم المتوترة بسبب استشهاد القائد القسام الذي سوف يقضي على النفوذ الأجنبي وعلى مشروع «الوطن القومي اليهودي»[٣٥].

ـ عم السخط على الزعامة الفلسطينية التقليدية، بسبب التقارب بينها وبين السلطات البريطانية، والغزل القائم بين الطرفين، فاستشهاد القسام كان بمثابة صحوة أمة، قامت ضد أولئك الزعماء التقليديين، وأيدت، بحزم ما قام به القسام، ولهذا أجبرتهم على تخفيف حدة التقرب من البريطانيين، ففي المقابلة التي أجراها المندوب السامي البريطاني في القدس، واكهوب، مع ممثلي الأحزاب الفلسطينية، بعد خمسة أيام فقط من استشهاد القسام، حيث قدم هؤلاء الزعماء مذكرة جاء فيها: «أنهم إذا لم يتلقوا عن مذكراتهم جوابًا، يمكن اعتباره

بصورة عامة مرضيًا، فإنهم سيفقدون كل ما يملكونه من نفوذ على أتباعهم، وبالتالى تسود الآراء المتطرفة غير المسؤولة، ويتدهور الحال سريعًا». وأبلغ واكهوب وزير المستعمرات الجديد فى رسالته، التى أرفق بها المذكرة المشار إليها «أن الزعماء العرب محقون فى القول بأنهم بدون ذلك، بدون تلبية مطالبهم، سيفقدون ما يملكونه من نفوذ، وتختفى بالتالى إمكانيات تهدئة الحالة الحاضرة، بالوسائل المعتدلة التى اقترحها»(٣٦).

- ترى الرواية الصهيونية لحركة القسام ورفاقه، والتى نشرت فى كتاب تحت عنوان «الثورة العربية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩/ الرواية الإسرائيلية الرسمية»، أن، «القسام خلّف وراءه ورثة، وكانت حركته النموذج والقدوة للعصابات التى تكاثرت فى المنطقة، والتى نشط فيها هو وزملاؤه، وهى منطقة جبال نابلس وجنين، وظلت هذه المنطقة مركزًا لتطور ونمو الحركات الثورية، أو العصابات، بسبب تمسك أهلها بدينهم وقوميتهم من جهة، ونزوعهم إلى العنف من جهة ثانية، والتكوين الجبلى للمنطقة، وكثرة غاباتها وأحراشها من جهة ثالثة، وأتت بعدها منطقة الخليل، التى كان فى إمكان العصابات أن تنتشر فيها، بسهولة، فى كهوف صحراء الخليل المجاورة، وكانت العصابات، فى البداية، قليلة العدد، وكان نطاق عملها محدودًا، فكانت تتشكل من أبناء قرية واحدة، أو حتى عائلة واحدة، كى لا يتسلل إلى صفوفها الجواسيس، والخونة، أو الوشاة، وكانت تنشط فى جوار القرى، التى كانت تستخدم قواعد لعملياتها، وملجأ، فى أوقات الخطر، وكانت تنطلق بعملياتها، فى الأوقات التى لا تتطلب الحقول فيها عملًا كثيرًا، وبمرور الوقت بدأت تتكون عصابات من أفراد متفرغين لمقاتلة الإنجليز واليهود، ويجمعون حولهم، وقت الضرورة، رجالًا من أبناء القرى. «نشط داخل هذه العصابات ثلاثة عناصر : المتدينون المتعصبون، والقوميون المتحمسون، وقطاع الطرق المشاغبون، وكان عدد العصابات التى يرأسها المتدينون المتعصبون ورثة القسام الروحيون، قليلًا، ونذكر مثالًا لها عصابة الشيخ فرحان السعدى، من قرية نورس، التى شنق زعيمها، البالغ من العمر ٧٥ عامًا، فى تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٧، بناء على حكم صدر عن محكمة عسكرية إنجليزية» (٣٧).

- تزيد الرواية الإسرائيلية من الأكاذيب، فى القول: « وفى البداية، حاولت [اللجان القومية] فرض سلطتها على العصابات، فألفت فى كل قرية، لجنة محلية تلقت أوامرها من اللجنة القومية، فى عاصمة القضاء، والتى كلفت بتنفيذ أعمال تخريبية، فى الأماكن المجاورة

لها، وأمرت سكان القرى بشراء أسلحة وذخائر، كان معظمها يأتى من شرق الأردن، لكن زعماء العصابات، أزاحوا بسرعة سلطة [اللجان القومية]، عن كواهلهم، واعتبروا أنفسهم مستقلين، عن [المتقاعسين] فى المدن، وتحدثت الصحف العربية عن مآثرهم، وبالغت فيها كثيرًا، ونشرت [الدفاع] قصيدة ترددت فيها اللازمة [كلنا أبو جلدة]، وقالت جريدة [اللواء] إنه يجب ألا يسمى أفراد العصابات [قطاع طرق]، بل [ثوارًا مقاتلين]، وما لبث الجمهور أن سماهم [المجاهدين] ، بينما اعتبر أفراد العصابات أنفسهم حملة لواء الثورة القومية، واعتبروا الجمهور ملزمًا بتكريمهم وإعالتهم»[٣٨].

ـ تركت ثورة القسام أثرًا كبيرًا على اليهود، إذ لم تخفِ الصحافة اليهودية فرحتها الغامرة لتوفق الإنجليز فى قتل عدد من المجاهدين الذين كانوا وراء موت روزنفلد، ويعقوب، وابنه، وفى يوم المعركة نفسه بثت سينما تل أبيب، بكلمات عبرية، تذكر الخبر بأن هناك معركة بين اللصوص وقوات الشرطة، ونشرت الصحف، ووزعت المناشير عن هؤلاء المجاهدين بصفتهم اللصوص، وأن القسام هارب من الشرطة الفرنسية؛ لأنه قاتل، وهذا دليل على الخوف والقلق الذى سكن أفئدة الإنجليز والصهاينة، نتيجة مقدرة العرب على مواجهة الانتداب والصهيونية، وقد عقد قائد مدينة تل أبيب الصهيونى، ديزنكوف اجتماعًا احتج فيه على أعمال الجهاد، وسماها «العصابة الإرهابية»، وهاجم الصحف العربية لامتداحها مثل هذه الأعمال؛ مما أدى إلى تكاتف الصهاينة مع القوات البريطانية لملاحقة المجاهدين[٣٩].

هكذا تعكس الرواية الإسرائيلية حجم المكانة الحقيقية للشيخ القسام، ومدى الأثر الذى تركته حركته الثورية فى نفوس الصهاينة وزعمائهم، ما أثار الذعر والخوف بينهم، خشية أن تكون ولادة حركة القسام، بمثابة إعلان النهاية للأطماع الاستعمارية الصهيونية، ولذلك لم توفر جهدًا فى تشويه هذا الرجل الأسطورى، وحركته الثورية، تارةً حينما نعته بـ «الإرهابي»، و«رجل الدين، الذى هجر محرابه لقتل الشباب اليهود الآمنين»، وأخرى حينما وصفت حركته بالعصابات الإرهابية، وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع الزعماء الصهاينة إلا الوقوف وقفة إجلال واحترام للشيخ القسام، لما تمتع به من شجاعة، وقوة إيمان بالفكرة، التى يتبناها، واستماتته فى سبيل الدفاع عنها، وهذا ما أكده بن غوريون، حينما وصف الشيخ القسام بأنه «ترومبلدور العرب»، وما قاله مؤرخون صهاينة، حينما قارنوا بين القسام وآخرين، بقولهم: «فهو غير النشاشيبى، وغير المفتى، وليست القضية بالنسبة له، مسألة ممارسة عمل سياسى، أو كسب مادى، فقد أظهر الشيخ القسام أنه مستعد للتضحية بحياته فى سبيل عقيدته الدينية»[٤٠].

هوامش الفصل السادس:

(١) خليل السواحرى، سليم سمعان ، التوجهات العنصرية فى مناهج التعليم الإسرائيلية، انظر الموقع الإلكترونى التالى: www. Syrian story.com /comment 23-12.htm

(٢) يوفال يردنى، عز الدين القسام الشيخ والأسطورة، مدرسة مقيف عميق حارود، تل أبيب، ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠١، ص١٦ .مخطوط ترجمة الزميل خالد سعيد عن العبرية.

(٣) حلمى عبد اللطيف قاعود، القسام باعث فكر الثورة بفلسطين، المركز العالمى للوسطيـة، انظر الموقع الإلكترونى التالى: http: / /wasatiaonline.net /news /details.php?data_id=592

(٤) يردنى، مصدر سبق ذكره، ص .ص ١٢، ١٦.

(٥) عز الدين القسام، الويكبيديا [باللغة العبرية]، مخطوط ترجمة الزميل خالد سعيد عن العبرية. انظر الموقع الإلكترونى التالى: www. Wikipedia.co.ill

(٦) عبد الجبار رجا العودة، ثورة الشيخ عز الدين القسام، (ط١، نابلس، الكتاب نسخة إلكترونية ، ٢٠٠١، ص٨).

(٧) يردنى، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧.

(٨) العودة، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(٩) يردنى ، المصدر نفسه، ص ١٨.

(١٠) العودة، مصدر سبق ذكره، ص٩.

(١١) يردنى، مصدر سبق ذكره، ص١٩.

(١٢) عبد القادر ياسين (تحرير)، ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية (انظر أحمد عاطف: حركة القسام المقدمة الحقيقية للثورة، ط١، مركز دار المحروسة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٥٢).

(١٣) يردنى، مصدرسبق ذكره، ص٢٠.

(١٤) العودة، مصدر سبق ذكره، ص.ص ١٠-١١.

(١٥) موطى غولان، القدس فى نظر الصهيونية .. السياسة الصهيونية تجاه مسألة القدس خلال الفترة من عام ١٩٣٧ وحتى عام ١٩٤٩، ط١ ، ترجمة جواد الجعبرى، رام الله، وزارة الإعلام الفلسطينية، ١٩٩٦، ص ٢٥.

(١٦) ياسين عز الدين، دروس وعبر فى ذكرى استشهاد القسام ٢ ، شبكة فلسطين للحوار، انظر الموقع الإلكترونى التالى: http: //www.paldf.net /forum /showthread.php?t=525391

(١٧) قاعود، مصدر سبق ذكره.

(١٨) يردنى، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٢٠) إميل توما،جذور القضية الفلسطينية هبة سنة ١٩٣٣: الشعب الفلسطينى فى مواجهة الانتداب البريطانى والصهيونية (المجلد الرابع، حيفا، ١٩٩٥) انظر الموقع الإلكترونى التالى: http:// www.alburayj.com /res/.201933.htm

(٢١) حاجى تسوريف، الرئيس الثانى، يميما روزنتال، تل أبيب ١٩٩٨. الموقع الإلكترونى العبرى: WWW.LIB.CET.AC.IL

(٢٢) ياسين (تحرير)، مصدر سبق ذكره ، (انظر محمد حسنى إبراهيم: أنشطة صهيونية عجلت بالثورة ص ٤٧).

(٢٣) المصدر نفسه، (انظر معالى أحمد عصمت: البعد الطبقى للثورة ص ١٨٦).

(٢٤) نجيب الأحمد، فلسطين تأريخًا ونضالًا، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٨٥، ص ٢٢٣.

(٢٥) ياسين (تحرير)، انظر: عاطف، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.

(٢٦) ويكبيديا (باللغة العبرية)، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢٧) ياسين (تحرير)، انظر: أحمد عاطف، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.

(٢٨) بداية الإضراب العربى ١٩٣٦، داعات، ٢٠٠٥/٦/١٤، انظر الموقع الإلكترونى التالى: WWW.DAAT.AC.IL، مخطوط ترجمة الزميل خالد سعيد عن العبرية.

(٢٩) العودة، مصدر سبق ذكره ، ص.ص ٣٦ -٣٧.

(٣٠) د عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، ط٢، سلسلة «عالم المعرفة»، الكويت، العدد ٢٦، يونيو/ حزيران١٩٨٥، ص٢٢٧.

(٣١) شبتاى تيبت، بن غوريون والعرب، ترجمة غازى السعدى، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٨٧، ص ١٩٩.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٠- ٢٢٤.

(٣٣) قاعود، مصدز سبق ذكره.

(٣٤) محمد عزة دروزة، العدوان الإسرائيلى القديم والعدوان الإسرائيلى الحديث على فلسطين وما جاورها ، ج٢، دار الكلمة ، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٢.

(٣٥) محمد مصباح حمدان، الاستعمار والصهيونية العالمية، دار المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٦٧م، ص١٧٧.

(٣٦) عبد الوهاب الكيالى، تاريخ فلسطين الحديث، ط ٩ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٥٣.

(٣٧) الثورة العربية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ الرواية الإسرائيلية الرسمية، ترجمة أحمد خليفة، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٩،٢٨.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٣٩) العودة، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٣.

(٤٠) www.palestineremembered.com/geo points/silat_al_dhahr_1590/article_8781.htm

***

الفصل السابع

وقائع الحركة القسامية

سوزان عاطف

● سميت الحركة بهذا الاسم، نسبة إلى مؤسسها وقائدها، الشيخ محمد عز الدين عبد القادر القسام.

● اتفقت المصادر التاريخية على مولد القسام فى بلدة جبلة بقضاء اللاذقية بسوريا، واختلفت تلك المصادر فى تحديد التاريخ الصحيح لمولده، فبينما ذكرت بعض المصادر أنه ولد عام ١٨٧١، أكدت مصادر أخرى أنه ولد عام ١٨٨٢. والتاريخ الأخير هو الأصح.

● كان والده، عزالدين عبد القادر مصطفى القسام، من المشتغلين بالتصوف وعلوم الشريعة، لذلك قام بتربية ولده محمد تربية دينية.

● تميَّز القسام منذ صغره بميله إلى العزلة والتفكير.

● تلقى دراسته الابتدائية فى كتاتيب بلدته، جبلة.

● رحل فى شبابه إلى مصر، حيث درس فى الأزهر، وتتلمذ على يد الشيخين محمد عبده، و محمد الطوخى.

● أقام فى مصر، لمدة تقرب من سبع سنوات (١٨٩٦ - ١٩٠٣)، وكان يقوم بصنع البسبوسة وبيعها حتى يعول نفسه.

● عاد إلى سوريا عام ١٩٠٣، وعمل مدرسًا فى جامع السلطان إبراهيم بمدينة جبلة.

● قاد القسام أول مظاهرة لتأييد الشعب الليبى فى مقاومته للاحتلال الايطالى، وكوَّن سرية من ٢٥٠ متطوعًا، وقام بحملة لجمع التبرعات للشعب الليبى، وعندما لم يستطع إيصال تلك التبرعات إلى الليبيين، قام ببناء مدرسة لتعليم القرآن واللغة العربية بتلك الأموال فى مدينته جبلة.

● فى عام ١٩٠٩، تزوج من أمينة النعنوعى، وهى ثرية سورية، أنجب منها القسام ثلاث فتيات، أولهن ميمنة (١٩١١).

● فى عام ١٩٢٠، شارك القسام فى الثورة ضد الفرنسيين، مع عمر البيطار، وصالح العلى، من زعماء العلويين.

● حاول الاحتلال الفرنسى شراءه بتوليته القضاء، فرفض ذلك، وكان جزاؤه أن حكم عليه الديوان السورى العرفى، التابع للانتداب الفرنسى بالإعدام.

● لجأ القسام إلى مدينة حيفا الفلسطينية، مفلتًا من حكم الإعدام، الصادر بحقه من سلطات الاحتلال الفرنسى، وأقام فى قرية الياجور، منذ شباط / فبراير ١٩٢١.

● توافق وصول القسام إلى حيفا، مع تفاقم أخطار الهجرة الصهيونية إلى فلسطين.

● عمل مدرسًا فى المدرسة الإسلامية بمدينة حيفا، وخطيبًا بجامع الاستقلال فيها.

● لطالما أبدى القسام اهتمامًا حقيقيًّا بتحسين أحوال معيشة أهالى الحى الذى أقام به فى حيفا، حيث يقطن فقراء الفلاحين الذين نزحوا من قراهم إلى المدينة، واضطروا إلى أن يعيشوا في هذا المستوى المنخفض، حيث كانت منازلهم عبارة عن عشش من الصفيح، بسبب تدفق الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وبدأ القسام يكافح الأمية فى صفوفهم، من خلال إعطائهم دروسًا ليلية، وسرعان ما أصبح فلاحو المنطقة الشمالية وعمالها يكنُّون له أبلغ الاحترام والمودة، بفضل زياراته المتكررة لهم، وما اتسم به من أصالة فى الخلق، وتقوى.

● فى عام ١٩٢٢، شرع فى تأسيس جمعية سرية أصبحت الأساس لتنظيم القسام، لاحقًا.

● كان الشيخ القسام، فى خطاباته وأحاديثه، يشدد أكثر من غيره من المشايخ فى التحريض على الثورة، داعيًا الناس إلى المقاومة.

● كانت للقسام قدرات كبيرة على إقامة أوسع الاتصالات، وأعمقها بمختلف طبقات الشعب وقواه السياسية، إلا إن حسه الطبقى جعله يضع ثقته العملية والنضالية فى الجماهير الكادحة، وفى هذا السياق قال القسام: «لقد اشتعل رأسى شيبًا، وخبرتى الطويلة فى الحياة تجعلنى أتعشم كثيرًا فى الفلاحين والعمال. فهم واثقون بالله، مؤمنون بجنات الخلد، واليوم الآخر، ومن كانت هذه صفاته كان أقرب الناس إلى التضحية، وأجرأهم على الإقدام، أضف

إلى ذلك أنهم أقوى بنية وأكثر احتمالًا للمشاق والمتاعب». لذا فقد أكد القسام أنه «لم يبق على هذه الأمة إلا أن تعتصم بما فى قلوب الفلاحين والعمال من بساطة وإيمان وبعد عن بهارج المدينة».

• لاحظ قائد فى الحركة الوطنية الفلسطينية، ما بين عشرينيات وخمسينيات القرن العشرين، هو محمد عزة دروزة، أن «الحلقات الجهادية السرية، التى باشرت العمليات المسلحة، منذ عام ١٩٣٠ ، بقيادة القسام، قد خرجت من بيوت التنك والخشب فى ضواحى حيفا» ، وبأن القسام كذلك «كان على اتصال وثيق بالحركة العمالية، ويمتلك نفوذًا مؤثرًا فى أوساطها».

• انتسب القسام إلى فرع «جمعية الشبان المسلمين»، بحيفا عام ١٩٢٦، وانتخب رئيسًا لذاك الفرع عام ١٩٢٨.

• ابتدأ يخرج إلى قرى شمال فلسطين منذ عام ١٩٢٩، عندما عُيِّن مأذونًا شرعيًّا من قبل المحكمة الشرعية. وأخذ يحض الناس على الجهاد، وفى الوقت نفسه يختار أعضاء جمعيته السرية.

• أما آليات اختيار العضو فى التنظيم القسامى فكانت تتم على أساس معرفة العضو المرشح والثقة به من قِبل أحد أعضاء الجمعية العاملين. وعن قرار قبول هذا الشخص عضوًا فى الجمعية السرية، فكان يتم بعد أن يقابله الشيخ عز الدين القسام، ويوافق عليه، وذلك لضمان أمن وسرية التنظيم، خاصة وهو فى مراحله الأولى.

• من المعروف أن القسام كان يدقق كثيرًا فى اختيار أعضاء التنظيم ، ويخضعهم لفترة طويلة من المراقبة، والمتابعة، والاختبار، وعندما يطالب أحد المريدين بضرورة العمل، كان القسام يضمه إلى خلية تنظيمية، دون أن يعرف بقية أعضاء، وخلايا التنظيم الأخرى، بل ربما اعتقد العضو أن هذه الخلية هى الأولى التى بدأ بها القسام العمل التنظيمى.

• أما مسألة جمع المال للحركة، فقد كانت تتم عن طريق الاشتراك الشهرى للأعضاء، والتبرع الطوعى من كبار الأثرياء الوطنيين، الذين كانوا أصدقاء للقسام.

• كان أبو إبراهيم الكبير قد ذكر فى حديث سابق مع ناجى علوش، عام ١٩٦٩، أن الخلية فى البداية كانت تضم (٥) أشخاص، ثم ارتفع العدد إلى حوالى (٩). فى الثلاثينيات. وقد رافق التنظيم السرى عملية تثقيف وتعبئة سياسية وجهادية، تولاها الشيخ القسام، بنفسه، فى البيت الذى استؤجر خصيصًا لاجتماعات الجمعية.

• عن كيفية تسليح أعضاء التنظيم، قال أبو إبراهيم الكبير «ذات صباح، وأنا نازل من بيتى، وإلى جانبى شخص من حوران، مررنا بمطحنة لليهود على طريق عكا - حيفا، وإذا بيهودى داخل المطحنة مستحكم، ومبرز بندقيته من طاقة جدار المطحنة، وأطلق النار باتجاهنا، فقتل الحورانى على الفور. وكان اليهود يقومون باستفزازات كثيرة من هذا النوع. فى اليوم التالى،

عندما عقد اجتماع الجمعية السرية، رويت الحادث الذى رأيته، وقلت: إلى متى نبقى نحن بدون سلاح، واليهود مسلحون، ويستعملون سلاحهم فينا؟ يجب أن نتسلح، وندافع عن أنفسنا. فقال الشيخ القسام أنا ما عندى مانع، اجمعوا من بعضكم نقودًا واشتروا السلاح.

● بعد شراء عدد من البنادق، والتدرب عليها، جاءت الخطوة الطبيعية التالية، وهى القيام بعمليات فدائية ضد المعسكرات والمستوطنين الصهاينة، وضد جنود الاستعمار البريطانى، الذى كان القسام يراه «أس البلاء»، أو «رأس الأفعى»، أما اليهود فليسوا سوى الذنب، فإذا ضُرِب الرأس «مات الذنب».

● لم تكتف الجمعية بشراء السلاح، بل عملت على تصنيعه بالوسائل الشعبية البدائية، ومن ذلك صناعة القنابل من المواسير، وكان أحمد الغلايينى، وهو من أعضاء الجمعية فى حيفا، قد بدأ بصناعة هذه القنابل؛ لأن عمله كان فى مجال صناعة المواسير.

● لم يكن محمد أبو العيون(أحد أعضاء التنظيم القسامي) هو المدرب الوحيد لأعضاء الجمعية، فقد كان الشيخ القسام، صاحب التجربة الثورية ضد الفرنسيين، يقوم بهذا الدور، أيضًا.

● بعد أن صار فى الجمعية من يحمل السلاح، وصار لها أعضاء مسلحون فى القرى، طُلب منهم القيام بعمليات عسكرية، ومهاجمة المستعمرات اليهودية للرد، والانتقام من اليهود الذين تسببوا فى قتل وجرح الكثيرين من العرب. وقد نفذت تلك المجموعة حوالى ٢٥ عملية هجوم على مستعمرات وأهداف وسيارات يهودية وإنجليزية، دون أن يتمكن البوليس أو سلطات الاحتلال من اكتشاف الذين يقومون بهذه العمليات، حتى إن وزارة المستعمرات البريطانية وجهت توبيخًا للبوليس فى حيفا، فأقالوا مسؤول البوليس عبود، وعينوا بدلًا منه حليم بسطة، وهو مصرى، كانت قوات الاحتلال البريطانى قد أحضرته معها من مصر إلى قطاع غزة .

● كانت القيادة القسامية حريصة على تنفيذ العمليات العسكرية فى أماكن بعيدة نسبيًّا عن حيفا، حيث مركز الحركة، وذلك لتضليل سلطات الاحتلال عن الجهة التى تقوم بهذه العمليات، خاصة أن الشيخ عز الدين القسام نفسه، وبسبب دوره ونشاطه العلنى فى التحريض ضد الإنجليز واليهود، كان موضع شبهات قوية من قبل سلطات الاحتلال، التى قامت باستجوابه، غير مرة.

● من أمثلة العمليات التى قام بها القساميون: كمن مسلحان من أعضاء التنظيم على طريق قرب يازور (قرية تبعد ٥ كم جنوب يافا)، لسيارة خضار يهودية قادمة من إحدى المستعمرات إلى حيفا، وأطلقوا النار على من فيها؛ مما أدى إلى مقتل اليهود السبعة الموجودين فى السيارة.

• إلى جانب عمليات أخرى متفرقة، كالهجوم على الكُبانيات(المستعمرات)، وتدمير ما فيها. وقتل شاويش إنجليزى، على شاطئ بحر حيفا.وإطلاق النار على عربة يهودى، قادم من مرج ابن عامر، قرب وادى خالد.كما شارك القساميون فى انتفاضة ١٩٣٣، وكان من ضمن عملياتهم قيام مصطفى على الأحمد(فلاح من صفورية) بوضع قنبلة فى منزل حرس مستوطنة نهلال(بين حيفا والناصرة)، فقتل اثنان، وأصيب آخر بجراح، وسيَّر القساميون قطيعًا من الغنم على الطريق، فضاع الأثر، لكنها اكتشفت رغم ذلك، وبسبب هذه العملية الأخيرة جرى اعتقال أبو إبراهيم الكبير(أحد الأعضاء المؤسسين للتنظيم القسامي)، لمدة تسعة أشهر فى سجن حيفا، بالرغم من عدم اشتراكه فى تلك العملية. كما أصدرت المحكمة حكمًا بإعدام كل من مصطفى الأحمد، والغلايينى؛ لأنه صنع القنبلة، ثم خفف الحكم عن الأخير إلى ١٥ عامًا بعد ذلك، وخرج من السجن عام ١٩٤٤.

• بعد انتفاضة أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٣٣ وقيام الصهاينة بالاستيلاء على المزيد من الأراضى، بدأ القسام بالقيام بجمع التبرعات، لابتياع كميات صغيرة من الأسلحة، استعدادًا للقيام بثورة ضد حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين التى اعتبرها القسام الحامية الحقيقية للصهيونية فى فلسطين.

• بحلول عام ١٩٣٥، كان القسام قد نظَّم العمل فى تنظيمه، وقسمه إلى خمس لجان: ١- فرع الدعوة: وهو مكوَّن من العلماء الذين يخطبون فى المساجد والمجتمعات حضًا على الثورة. ٢- فرع التموين: لشراء السلاح. ٣- فرع التدريب العسكري: أشرف عليه ضباط ممن خدموا فى الجيش التركي. ٤- فرع التجسس: على اليهود والإنجليز، لمعرفة خططهم. ٥- فرع العلاقات الخارجية: للاتصالات السياسية.

• بلغ عدد المجاهدين، الذين أعدهم القسام للجهاد، فى عام ١٩٣٥ نحو٣٠٠ مجاهد، أكثرهم يشرف على حلقات توجيهية.

• قبل الخروج إلى يعبد، مباشرة، قام أصحاب القسام ببيع حلى زوجاتهم، وبعض أثاث بيوتهم، واشتروا بأثمانها رصاصًا وبنادق.

• كما أرسل القسام أحد إخوانه (محمود سالم)، الملقب بـ(أبو أحمد القسام)، إلى سماحة رئيس المجلس الإسلامى الأعلى ومفتى القدس، الحاج أمين الحسينى ليبلغه بعزم القسام القيام بثورة فى فلسطين، للقضاء على فكرة الوطن القومى لليهود، لكن المفتى لم يستجب لطلبه، وإن أرسل إليه بعض المال. وكان رد المفتى على القسام بأن الوقت لم يحن، بعد، للقيام بالثورة، كان ذلك عشية خروج القسام وصحبه من حيفا.

• عقد آخر اجتماع لقيادة التنظيم فى مدينة حيفا، مركز الثورة الرئيسى، وذلك فى منزل القائد

محمود سالم المخزومى، فى ليلة ١٢تشرين / نوفمبر١٩٣٥ ، حيث غادر القسام، ومعه نحو عشرين من إخوانه، المدربين عسكريًّا، إلى قضاء جنين لدعوة الشعب إلى الاشتراك فى الثورة المسلحة، على نطاق واسع.

● فى إحدى الليالى، هاجم مجهولون إحدى المستعمرات، وهى مستوطنة عين جارود، الواقعة شمال شرقى نورس، حيث كان القسام، ومر المهاجمون، أثناء رجوعهم، بالقرب من مركز الشيخ، وفى الصباح مرت دورية من شاويش، وشرطى، وقصاص أثر، للبحث عن هؤلاء الأشخاص المجهولين، وحين وصلوا قريبًا من المغارة التى كان ينام فيها القسام، رآهم محمود سالم، وكان يقوم على الحراسة، فى مكان بعيد عن المغارة، فأخبر يوسف الزيباوى ، وكان يحرس باب المغارة، بأن هناك عسكر قادمين باتجاهنا، هل أطلق عليهم النار؟ وحين وصل الخبر للشيخ القسام، قال: «إذا تجاوزونا، لا تطلقوا عليهم، بل اتركوهم»، لكن محمود سالم أطلق النار على الشاويش، فقتله، وفر الآخران، فأمر القسام: «اجمعوا أغراضكم، بسرعة، لنغادر هذا المكان، فسيأتى الجيش، قريبًا، ويطوِّقنا».

● وكانت تلك هى الحادثة الأولى التى كشفت عن مركز القيادة القسامية.

● بعد هذه الحادثة، اتجه الشيخ وجماعته من نورس إلى خربة الشيخ زيد(شمالى يعبد)، وقطعوا أكثر من ٥٥كم، فى خمسة أيام. غير أن عيون الجواسيس كانت وراءهم، فاكتشف الجيش البريطانى مكانهم ، وفى فجر اليوم التالى طوَّق المنطقة، التى تواجد فيها الشيخ القسام وإخوانه، وكان مع الإنجليز ضابطٍ اسمه أحمدٍ النايف، صاحٍ على القسام ليسلم نفسه، ولكن القسام رفض التسليم، ورد قائلًا: «أنا لا أسلِّم لكم، أنا لا أسلِّم إلا لله». ودارت المعركة بين الطرفين، فأصيب القسام خلالها إصابة قاتلة، وفى ٢٠/ ١١/ ١٩٣٥ استشهد القسام، بعد معركة قامت قوات البوليس فيها بتطويق قرية الشيخ زيد، كى تقطع الاتصال بين القسام و القرى المجاورة، خوفًا من وصول نجدات من تلك القرى.

● كما استشهد عدد من إخوان القسام، وأسر عدد آخر، بعد أن أصيبوا بجراح بينما تمكن آخرون من كسر الطوق، والانسحاب، ومنهم فرحان السعدى، ويوسف أبو درَّة، ومحمود سالم. أما الشهداء، فهم الشيخ يوسف الزيباوى، ومحمد أبو قاسم خلف، ومحمد عطية أحمد (مصري) . وكان عدد الأسرى الجرحى سبعة وهم: حسن الباير، وعربى بدوى، وأسعد المفلح، والشيخ نمر السعدى، وداود على الحطاب، ومعروف الحاج جابر.

● كانت القوات البريطانية التى اشتركت فى معركة يعبد، تناهز ٥٠٠ جندى، تساندها الطائرات الاستكشافية، مقابل ١٥ مجاهدًا؛ ورغم ذلك فقد استمرت المعركة من الفجر، حتى الساعة العاشرة صباحًا، وحوَّلت قضاء جنين إلى ساحة حرب، كما وصفت جريدة «فلسطين» المعركة، فى اليوم التالى، ٢١/ ١١/ ١٩٣٥.

• حكم على كل من الباير، وبدوى، والحاج بأربعة عشر عامًا، بينما حكم على الآخرين بمدة سنتين. وهذه الأحكام المخففة التى صدرت مع انفجار ثورة ١٩٣٦ ، جاءت كمحاولة لامتصاص النقمة الجماهيرية التى انفجرت إثر استشهاد القسام.

• حملت الجماهير نعش الشهيد القسام على الأكتاف إلى قرية (الياجور)، حيث دفن، وتبعد تلك القرية نحو سبعة كيلومترات عن حيفا، واشترك فى تشييع جنازته أكثر من عشرين ألفا، وتحولت جنازته إلى مظاهرة هتفت بسقوط الاستعمار والوطن القومى لليهود.

• أشار التقرير السنوى لحكومة الانتداب، عام ١٩٣٥ ، إلى أنه كان لدى الحكومة شك كبير فى أن «لعصابة» الشيخ القسام علاقة بالأعمال «الإرهابية» التى وقعت، خلال السنوات السابقة.

• أجمع كل من عايش الشيخ عز الدين القسام أنـه كـان يمتلك مزايا عالية، جعلته يحتل مكانة بارزة، فى منطقة حيفا والأرياف الشمالية، فهو، إلى جانب ورعه وتقواه، كان زاهدًا فى متع الحياة، وزخارفها، حسن السيرة والمعاشرة، محدثا لبقًا، وخطيبًا بارعًا، وكان يرى فى الدين قوة للحياة، والجهاد، لمواجهة المستعمرين الأجانب، وليس مجرد فروض للعبادات. وتمتع القسام فوق ذلك بامتلاك معارف، وخبرات واسعة، كما كان يتقن اللغة الإنجليزية، قراءة وكتابة.

• قام أهالى فلسطين بالاحتفال بذكرى الأربعين لاستشهاد القسام ورفاقه فى يافا فى يناير/ كانون الثانى ١٩٣٦ ، ذلك فى احتفال وطنيٍّ رائع.

• نفى أبو إبراهيم الصغير (أحد أعضاء تنظيم القسام)أن يكون للقسام أى ارتباط بأى حزبى، وأكد أن ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الإسلامية وحدها.

• بعد استشهاد الشيخ القسام، عام ١٩٣٥ ، قرر من نفذ من الطوق (الشيخ فرحان السعدى، ويوسف أبو درَّة، ومحمود سالم)، مع من بقى من جماعة القسام متابعة الثورة، فتحمّس الناس لها، وبدؤوا يستعملون سلاحهم، فى الهجوم على المستعمرات، وفى نصب الكمائن على الطرق للسيارات اليهودية والنقاط الإنجليزية.

• أخذت القيادة القسامية تجتمع فى سولم، كل ليلة، بعد الغروب، وتتفق على الخطط والأهداف التى تنوى مهاجمتها. وكان من بين أعضاء الجمعية الذين يجتمعون فى سولم: الشيخ نايف الزعبى، وموسى النصر. وكان ينضم إليهم من القرى المجاورة الشيخ فرحان السعدى، وأبو إبراهيم الصغير (توفيق الإبراهيم)، ومحمود سالم، والشيخ سعد البدوى، وغيرهم. أما أعضاء الجمعية فى حيفا، فقد بقوا فى المدينة، ومنهم أبو خالد (محمد صالح الحمد).

● فى ١٥ نيسان/ أبريل من عام ١٩٣٦، انفجرت الثورة الفلسطينية الكبرى، بقيادة القساميين: أبو إبراهيم الكبير، وفرحان السعدى.

● بدأ أبناء الجمعية فى القرى بمهاجمة الكُبانيات (المستعمرات اليهودية)، التى كانت فى مرج ابن عامر. كان اليهود، وقتها لا يستطيعون الدفاع عن كُبانياتهم، فيما أخذ الجيش الإنجليزى على عاتقه هذه المهمة عنهم. ولطالما اشتبك مع المجاهدين، وفى آخر المعركة، يرجع المجاهدون، ويتفرق كل واحد إلى بلده، لليلة الثانية، يتجمعون... ويهاجمون كُبانية أخرى غير تلك التى هاجموها، أول مرة. الجيش البريطانى استكثر هذه الحوادث، وأصبح يتجسس على الذين قاموا بتلك العمليات، ووصل إلى القيادة البريطانية فى حيفا خبر مفادة أن هذه الهجمات تنطلق كل ليلة من قرية سولم.

● انضم إلى تنظيم القسام مجاهدون من حيفا، وبقية المناطق. ومن هناك أعلنت الثورة، عام ١٩٣٦، وبدأت تنظم هجمات كبيرة على المستعمرات اليهودية، أولى تلك العمليات كانت الهجوم على مستعمرة «مشمار هايميك»، القريبة من نواحى اليامون، والسيلة.

● كما هو معروف، تواصلت الثورة الفلسطينية الكبرى، لمدة ثلاث سنوات متصلة، فى كل أرجاء فلسطين.

هوامش الفصل السابع

(١) صبحى ياسين، الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٩، ط٢، القاهرة، دار الكتاب العربى،١٩٦٧.

(٢) عبد الوهاب الكيالى، تاريخ فلسطين الحديث، ط١، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٧٠.

(٣) عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطينى قبل عام ١٩٤٨، ط١ ، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، آيار/ مايو ١٩٧٥.

(٤) عادل حسن غنيم، الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧إلى١٩٣٦، ط١، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

(٥) كامل محمود خلة، فلسطين والانتداب البريطانى ١٩٣٢ - ١٩٣٩، ط٢، طرابلس ـ ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢.

(٦) أحمد خليفة (مترجمًا)، الثورة العربية الكبرى فى فلسطين ١٩٣٦- ١٩٣٩ الرواية الإسرائيلية الرسمية، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٩.

(٧) عبد الكريم العلوجى،عز الدين القسام،ط١، القاهرة، دار الكتاب العربى،٢٠٠٩.

(٨) نزيه أبو نضال(إعداد)، مذكرات أبو إبراهيم الكبير، نسخة إلكترونية، عمان، ٢٠٠٩.

(٩) صالح أبويصير، جهاد شعب فلسطين، القاهرة، دار الفتح، ط٤، ١٩٧١.

(١٠) فيحاء عبد الهادي(محررة)، أدوار المرأة الفلسطينية فى الثلاثينيات، رام الله، (انظر: شهادة ميمنة عز الدين القسام، ص١٤٩ - ١٨٢).

(١١) على حسين خلف، تجربة عز الدين القسام ١٨٨٢ - ١٩٢١، شؤون فلسطينية، (بيروت)، آذار/ مارس ١٩٨٢.

(١٢) عز الدين القسام من : ويكبيديا، شبكة المعلومات الدولية.

(١٣) عز الدين القسام فى :www.islamweb.com

(١٤) قصة الشهيد المجاهد عز الدين القسام «ابن مدينة جبلة»، على موقع : www.islamweb.com wwwalqassam ps

(١٥) حوار القسم الإعلامى للجماعة الإسلامية- لبنان- مع د.ابتهال محمد عز الدين القسام، على موقع wwwikwan net

القسام

المجاهد و الحركة

تصحّح وضع الحركة الوطنية الفلسطينية كثيرًا، منذ مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، فاعتُبر الانتداب البريطانى «أُس البلاء»، والصهيونية مجرّد ذيل له، فيما أخلى التّوسُّل والتسوُّل مكانهما للمظاهرات الصدامية، التى تأكّد عقمها ، سريعًا، فغدا الكفاح المسلّح حتميًّا، لكن أيًا من قادة الحركة الوطنية الفلسطينية لم يتقدّم لالتقاطه. هنا تقدّم شيخٌ وطنىّ جسور، لم يصطنع حاجزًا بين المسجد والوطن، ولم يحتكِم للإنجليز فى صراعه مع الصهاينة، ولم يتوهّم فى جدوى المذكّرة، والوفد، والمؤتمر. فامتشق الكفاح المسلح فى وجه أعداء الأمة، وغدا شيخنا رائدًا لهذا الشكل الكفاحى ، فى فلسطين، فضلًا عن أن لاهوت التحرير، والبؤرة الثورية، يعود الفضل فيهما للشيخ نفسه، وإن انتميا لغيره من الأجانب.

إنه الشيخ عز الدين القسّام، ابن بلدة جبلة، التابعة للاذقية، شمال غربى سوريا، وهو الذى قدّم تجربةً فذّةً، قام هذا الكتاب [illegible] بمناسبة مرور ٧٥ سنة على استشهاد القسام (١٩٣٥/١١/٢٠).



